أيمن بكر

تاريخ سري للعنقاء

رواية

دار دَوِّن

أيمن بكر: تاريخ سري للعنقاء، رواية

الطبعة العربية الأولي: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ١٩٧١٧/ ٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: ٨ - ٣٧٣ - ٨٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْــعِ والنَّشرِ محـْــفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هــذا الكتـــاب
لا تعبــر عــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة
وإنمـــا تعبــر عــن رؤيــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

أيمن بكر

تاريخ سري للعنقاء

رواية

... ثم تنهض من رمادها قوية كعاصفة...

الجمعة ١ يناير ٢٠١٦

ما تلك الطيور التي تحلق في أحلامي ؟!

الفضاء وسيع .. لكني لا أتذكر شكلها بوضوح

~~عناوينها~~ ~~نواحيها~~ أصواتها تعود إلى أذني في

الصحو مزيجاً من التغريد النشوان واللحن

الجنائزي الذي ينبئ عن موت وشيك .. بداخلي .

هي المرة الأولى التي ~~أفكر~~ أحوم فيها حول

منابع الوجع والنشوة في ذاكرتي .. وما أشعر

من لذة يخبرني بأن لن تكون الأخيرة

هناك ما يدعوني لمزيد من وصف هذه اللحظة.
شيء ما يسيل على طرف لساني ألذ من العسل
المصفّى وأكثر حدة من ملوحة الجبن الذي كانت
~~أمي~~ الوالدة تتركه في البلاص الآنية الفخارية
لنأكله معتقا. أهذا نذير حرية ؟!!!
لكن كيف لي أن أعرف وأنا أجهلها ؟! نعم..
إن كنت أنوي الدخول إلى ذاتي فلابد من الاعتراف
أن لحظات الحرية في حياتي قليلة ~~ومريرة~~ كما
أنها مرت كطيف خيال. كل ما أشعر فيه الآن
أني مستمتع باللعب مع هذه الأوراق التي
يبدو أنها ستذهب في رحلة بعيدا....

[illegible] .....

برغم كراهيتهم الشديدة له، سيأتي يوم يرميني فيه هؤلاء السُّذج بالخيانة، مجموعة التافهين حديثي التخرج الذين لا يفقهون شيئًا من حقائق الحياة، ولا يملكون سوى اندفاع أهوج يسمونه الحماس. أعرف ذلك ولا يشغلني كثيرًا، فلن يوقفني شيء عن فضح كائن خرافي بشع. أثق بأن أحدًا لا يَقدر على تخيل صورته بمثل ما رسمها هو نفسه في مذكراته، وأتوقع أن يكون، على غير عادته، صادقًا. على أية حال ستكون الضربة قاضية بلا شك.

الليلة... لا... بل الآن فورًا أشرع في قراءة أوراقه السرية. لا بأس من زيارة صباحية لبار الهيلتون؛ إذ بصعوبة أطيق الانتظار. هذا المُتلون كحرباء يظن أنه يعرف بَواطن الناس بأكثر مما يعرفونها هم أنفسهم. يا سلااااام، سأقرأ أولًا كل ما كتب، ثم أنتقي ما يَصلح للنشر منه، وما يجب أن يبقى سلاحًا جاهزًا في مكان أمين، هذا إن لزم الأمر، أو حاول التنمر كعادته في لحظات الضعف.

- كأس ويسكي يا رأفت... دوبل.

ولكن لماذا كانت الأوراق متناثرة هكذا كأنما سقطت من السقف؟ كيف يترك هذا المغفل أوراقًا بهذه الأهمية فوق منضدة الطعام كمن ينشرها لتجف، أو يعرضها في مزاد؟ أتُراه كان يفكر في التخلص منها حرقًا أو تمزيقًا؟ لكن... حقًّا... ما الذي يمكن أن يقلقه؟ فشقته تشبه مغارة الأربعين حرامي التي لم يدخلها أيٌّ من معارفه، ولولا سقوطه المفاجئ لَما عرفت أنا أيضًا أين يتوارى هذا الكائن الخرافي.

المكان محاط بهالة غريبة من الغموض، يبدأ بشعور قاتم تمنحه لك الصالة؛ فمع انفتاح الباب الخشبي الطويل يظهر للواقف خارجها ممر معتم، وبعد خطوات قليلة داخله تنفتح المغارة. ضوءُها خافِت، وحوائطها جرداء إلا من لوحتين، كلتاهما وحيدة. الأولى على الحائط المقابل لباب الشقة فيها حيوان داخل قفص؛ كلب أو ربما ذئب يلف رقبته بصورة مخيفة، شعرت أنه ينظر نحوي مباشرة. ولوحة أخرى كبيرة بالأبيض والأسود، يراها الجالس إلى طاولة الطعام معلقة بجوار باب الشقة، يملأها وجه شاب مبتسم. الإضاءة الخافتة وحالة الترقب والرهبة التي تَملَّكتني لم يسمحا لي بالتدقيق في ملامح صاحب الصورة، لكن أظنها صورته في شبابه؛ هذا الشمبانزي المفتون بذاته. طوال سنوات عملي في المجلة لم أقابل أحدًا يعرف مكان المغارة التي يسكنها، حتى سائقه الخاص. هو نفسه أخبرني ذات مرة أن أحدًا لا يدخلها سوى المدبرة، التي استنجدت بي هذا الصباح.

لن يمر وقت طويل حتى يعرف من الذي استولى على كنزه السري. آااااه... أنتظر بصبر فارغ رؤية وجهِهِ وهو ينظر في عينيَّ. أتُراه سيجرؤ على ذلك، وهو يعرف أن أحشاءه جميعًا في قبضة يدي؟ تُرى أي دور مسرحي سيتقمص في مشهده الختامي؟

* * *

تعالت ضحكته وهو ينزلق مرتخيًا على الكرسي، حين راودته فكرة أن يبدأ هو أيضًا في كتابة مذكراته، ورغم أنه لم يعتَد الشرب أثناء النهار، أشار للنادل طالبًا كأسًا ثانية من الويسكي المعتق.

نزل من السيارة قبل المبنى الذي يسكن فيه بحوالي مائتَي متر. وقف حتى تحرك محمود السائق بالسيارة مبتعدًا. لف متحركًا في عكس اتجاه البيت. انعطف يسارًا في شارع صبري أبو عَلم. خطواته واسعة، يرفع خلالها قدميه عن الأرض بصورة لافتة، كمن يَعبر مجرى مائيًّا صغيرًا. طوله المتوسط، انحناءة جذعه، جاكيته المغلق ذو اللون البني الباهت غالبًا، بنطاله الداكن القصير الذي يُظهر جزءًا لا بأس به من جوربيه، حقيبة الأوراق السوداء التي يعلقها على كتفه اليسرى، مُحكِمًا قبضته على يدها كمن يخشى أن تفر، كل ذلك يجعله مثل شخصية خرجت للتو من فيلم رسوم متحركة قديم بالأبيض والأسود.

انحرف مع أول يسار. شارع جانبي مظلم لا تدخله السيارات، ويخلو إلا من عساكر الحراسة الذين يجلسون بتراخٍ أمام أبواب البنوك المغلقة المتناثرة على الجانبين. بعد أمتار قليلة وقف بصورة مفاجئة ملصقًا ظهره بحائط المبنى الذي يسير إلى جواره. نظر عن يمينه من حيث أتى لثوانٍ، ثم أكمل طريقه. انحرف يسارًا مرة أخرى عند أول شارع، وفي نهايته ومع الانحراف الأخير لليسار اكتملت الدورة حول مربع المباني الذي يقع فيه بيته. وصل إلى مدخل العمارة من الجهة المعاكسة للنقطة التي أنزله فيها السائق. مرق إلى داخل المبنى بسرعة. تَنَفَّس براحةٍ حين لم يجد أحدًا أمام باب المصعد. وككل مرَّة صعد إلى الدور الثالث، ثم نزل على السلالم إلى الثاني حيث شقته. بعد أن دخل - وبحركة آلية - أغلق الباب بالمفتاح، ثم بالترابيس الموزعة على طول الباب. سكون عظيم يملأ روحه في هذه اللحظة، يترك العالَم هناك ويتنسم الأمان في مكانه المحجوب عن الأعين.

توجه مباشرة إلى غرفة النوم، قاطعًا الصالة الواسعة المعتمة التي تتوسطها منضدة الطعام دون أن ينظر إلى شيء. بدأ في تغيير ملابسه: يخلع الجاكيت أولًا ويعلقه على شماعته العريضة، فالبنطال والقميص واضعًا كلًّا منهما على شماعة نحيلة. يلبس البنطال وبعده جاكيت البيچامة، ثم يجلس على طرَف السرير ليخلع جوربيه. يحملهما بعد أن يضع قدميه في الشبشب. يتوجه للحمام ملقيًا الجوربين في سلة الغسيل. يغسل يديه فوجهه فقدميه، ثم يديه مرة أخرى. ينشف المياه بدقة، وبعدها يرتدي الروب القطني المعلق على باب الحمام من الداخل. يخرج إلى الصالة وقد انتصب جذعه واختفت الانحناءة التي تصاحب حركته في كل مكان يذهب إليه خارج شقته؛ في المجلة، والشارع، واجتماعات النقابة، وفي لجان مجلس الشعب التي يغطيها بنفسه حين يتواجد فيها أحد الوزراء، وحتى في أروقة النادي الأهلي الذي نال عضويته بإهداءٍ كريم من رئيس النادي، لا تفارقه انحناءة أصبحت جزءًا بارزًا من صورته.

ليس بإمكان شيء أن يؤرقه؛ فقد انتظمت حياته بصورة يراها مثالية. صحيح أنه يفتقد وجود الأنثى، وطالما ألحت عليه صورة شمايل تدعوه بأن يتصل بها، أو أن يأخذ أول طائرة إلى باريس

ليلقي بنفسه بين أحضانها، لكنه عادةً لا يجد صعوبة في طرد هذه الفكرة من رأسه، كلما نغزته ذكريات فشله المتكررة التي بدأت منذ أيام الجامعة.

معارفه كثر، لكنه لا يأمن أحدًا. يستخدم كلمة «صديقي» كثيرًا، غير أنه لم يشعر يومًا بشيء يمس روحه يشبه الصداقة كما عرفها في براءة الشباب. لا أحد يعرف شيئًا عن تاريخه، حتى مدبرة المنزل، التي تقوم بكل ما يحتاج من تنظيف وترتيب وإعداد للطعام، لا تعرف من يكون بالتحديد. الأعجب من ذلك هو طريقة اختياره لها.

قراءة الصور من مواهبه التي يحرص على إخفائها إلا عن المقربين بصورة استثنائية. نعم، هو يستطيع أن يعرف الكثير عن الشخص إذا نظر في صورته مدقِّقًا، بشرط أن يكون الشخص الموجود في الصورة على عِلم بأن عين الكاميرا موجهة إليه، وأن تكون نظرته موجهة إلى عدسة الكاميرا. وأهم شرط هو ألا يكون هو على معرفة، ولو طفيفة، بالشخص الذي سيقرأ شخصيته من الصورة.

«في اللحظة التي تسجلها الكاميرا، يشعر الكائن أنه يتعرى بصورة مفاجئة، وأن حياته بكل ما فيها سوف تتكشف من نافذتَي عينيه؛ لذا يجب أن يكون ناظرًا لعدسة الكاميرا حتى أتمكن من قراءة شخصيته. حين يظن الكائن أن تلك الآلة السحرية ستمسك بتلابيبه من الداخل وتعريه، يتملكه بعمقٍ شعور الفضيحة، فتتجلى، في جزء من الثانية، حيله جميعها في محاولة متعجلة لإخفاء ما يخشى، وإظهار ما يحسبه مبهرًا أو مدعاة للفخر. تستنفر هذه اللحظة التي يستهين بها الناس الادعاءَ والمقاومة ليتبدى الكائن كما يتمنى أن يراه الناس، وربما كما يتمنى أن يرى نفسه. أنا لا أفعل شيئًا سوى قراءة هذه الدفاعات والادعاءات، أو غيابها، وما يكمن وراء ذلك يا صديقي.»

لا يخيب ظنه غالبًا في اكتشاف الشخصية التي يتعامل معها، وتحديد نقاط الضعف والقوة فيها. بقليل من التركيز، ينجح دومًا في استنتاج ما تحت السطح. لا يعرف، ولا يشغله أن يعرف، من أين أتى بتلك القدرة.

صار يتسلى، لشدة تمرسه، بلعبة مراهنة حول أشياء بعيدة لا دليل عليها عن الأشخاص الذين يقابلهم، وما ألذ المراهنة مع الذات. حين التقى إحدى نجمات السينما للمرة الأولى، دار بينهما حوار قصير على سجادة مهرجان القاهرة السينمائي، بعدها راهن نفسه أنها متزوجة سرًّا، وهو زواج عرفي، من أحد السياسيين أو رجال الأعمال المتنفذين. شيء ما في نبرة صوتها، ونظرة عينيها الواثقة حين التقت بعينيه للحظات، جعله يشعر بأن وراءها قوة من نوع مختلف، لا تشبه ما تمنحه الثروة أو الشهرة فحسب، بل شيء آخر أكثر صلابة وخفاء. أحس كذلك بأن ثقتها الزائدة مشوبة بقلق عميق، أوحى له أن الزوج المتنفذ لم يقبل أن يكون الزواج رسميًّا معلنًا. بعد أشهُر قليلة كسب الرهان مع نفسه؛ فقد عرف من أحد أصدقائه المهمين أن النجمة هي الزوجة الثالثة لوزير مشهور بتدينه الشديد، كما كشف له صديقه أن سعادة الوزير تزوجها عرفيًّا كعادته.

لم يخطر ببال أحد من معارفه مدى استمتاعه بالصمت، هو الثرثار صاحب الحديث المتدفق، والقفشات الحارقة المعبأة بتلميحات خبيثة تشبه التهديد إذا لزم الأمر، الذي لا يترك فرصة ليسترسل أيٌّ من محدثيه في فكرة إلا أخذ خيط الحديث نحو موضوع يتناسب في البداية مع ما يقول المتكلم، ثم يتحول به نحو شيء يخصه هو محققًا أقصى إفادة من الموقف. لا يدري متى بدأت معه هذه الحيل لتوجيه الحوار والسيطرة عليه، ربما في الجامعة أيام كان يتنقل، كمستمع لا أكثر، بين التيارات والجماعات المختلفة. تَعلَّم من التيارات السياسية، الشيوعيين والناصريين تحديدًا، كيف يشتت انتباه خصمه بالتساؤل الذي يبدو بريئًا عن المعاني البديهية، فإذا بدأ الخصم كلامه بأن يقول:

- في أي مجتمع حديث...

يبادر إلى مقاطعته بتلويحة من يده، وببطء يوحي بخطورة ما سيقول:

- مهلًا لو سمحت... لا بد من تحديد المصطلحات والمفاهيم؛ حتى لا يتحول كلامنا إلى حوار طرشان: ماذا تعني بكلمة «مجتمع»؟ وما قصدك تحديدًا بمصطلح «حديث»؟

سوف يسقط الخصم حتمًا في دوامة إن هو حاول تعريف كلمات تبدو بديهية، كما أنها ليست الأساس في النقاش الدائر، ويأخذ هو نَفَسًا لترتيب أفكاره!

تَعلَّم من السلفيين والإخوان متى يُبرق بعينيه موجهًا السؤال حول الإيمان بالقضاء، أو بحكمة الخالق في تدبير شؤون خلقه؛ ليثير غبار ريبة موجعة دون أن ينطق كلمة واحدة تشكك صراحة في إيمان محدثه. أما شلة مسرح الجامعة فعَلَّمته كيف يلون أداءه الصوتي والجسدي، ويتحكم في إيقاع صوته، وكيف يترك انطباعات مختلفة بتعبيرات وجهه، ومتى يُحول الموضوع إلى نكتة حين يعجز عن الرد.

لم يَعُد بإمكان أحد - بعد هذا العمر من الخبرة بألاعيب الحوار - أن يعرف ما بداخله. جامد الملامح في صمته، تخرج الكلمات من بين أسنانه الظاهرة غالبًا. يمكنه بمهارة أن يتحكم في ابتسامته موحيًا بما يشاء من سخرية، أو جدية زائدة، أو غضب وشيك، أو تفاؤل يجب على الحضور أن يشعروه، أو حذر وتأمل، أو غيرها من المعاني التي يضبط إيقاعها على ملامح وجهه بمهارة. ولأنه صاحب تجربة واسعة في الحياة، أصبح حديثه مغلفًا بسحر لا يسمح لأحد بمقاطعته؛ فهو يجيد صُنع الوقفات، ويعرف متى يرفع يده بحسم ليُسكت شخصًا يجلس عن يساره أو يمينه، من دون أن ينظر إليه، حين يشعر من حركة الجسد وطريقة أخذِ هذا الشخص لنَفَسِه أنه ينوي المقاطعة. يعرف أيضًا متى يعلو صوته ليُسمع المنضدة المجاورة في أتيليه القاهرة، أو على مقهى ريش، ومتى يهمس حتى يجبر الجالسين حول منضدته على الميل باتجاهه كي يسمعوا كلامه الخطير.

توقف عن الانشغال - حين يكون متحدثًا في ندوة أو مؤتمر - بتحضير الموضوع الذي سيتكلم

حوله، فقط يهتم بجمع المعلومات عمن سيشاركونه الحديث، وطبيعة جمهور المستمعين. يشحذ ذهنه وحسب بأكبر قدر من «الإفيهات» التي يمكنها إشعال فتيل السخرية، أو الأسى، أو التعاطف، أو الغموض الموهم بالعمق لدى المستمعين والمشاركين في الكلام على حد سواء.

أصبح في العقدين الأخيرين واحدًا من أشهر المُنظرين للقوى الناعمة، وتأثيرها الذي يجب أن نسترده في محاربة الفكر المتشدد. وفي إحدى الندوات عن دور الفن في محاربة التطرف والإرهاب، كان شريكه على المنصة - وهو قليلًا ما يسمح بهذا مؤخرًا - شابًّا ممن يعرف عنهم الجدية والدأب في البحث.

قبل البدء مال على أُذن مقدِّم الندوة:

- ليتك تؤجل مداخلتي لكي نُفسح المجال للشباب.

رمقه مقدِّم الندوة بزاوية عينه، وقد طافت على شفتيه ابتسامة سخرية سريعة. خلال نصف ساعة، قضاها الباحث الشاب في استعراض أفكاره بجدية وحماس شديدين، جذبت المستمعين، وأثارت دهشةً تَبدَّت في همهمات وتصفيق حماسي، كان هو قد أعد مجموعة مشوقة من ذكرياته مع نجوم فنٍّ لامعين؛ من مطربين وممثلين وملحنين ورسامين. يكرر استخدام تلك الذكريات، مع تعديلات محسوبة بدقة لِما يجب أن يظهر منها أو يختفي أو يضاف، بحسب الموقف. بدأ كلامه بثناء مطول ودافئ على المتحدث الشاب، الذي فاجأته كلمات التشجيع المنسابة بإيقاع هادئ، حتى كادت الدموع تطفر من عينيه ما بين خجل وسعادة:

- أيها السيدات والسادة... نحن نجلس في حضرة المستقبل.

ثم أشار بيده نحو الشاب دون أن ينظر إليه:

- نعم... المستقبل أصبح واقعًا يجلس بيننا... ولا يملك جيلنا سوى أن يلعب دور الماضي... الماضي الذي ربما آن الأوان أن يستحي ويتراجع متواضعًا، بل ربما وجب عليه عند نقطةٍ محددة أن يتوارى أمام الغد الذي بدأ الآن وهنا.

قلَّب بعض الأوراق الفارغة إلا من ملاحظاتٍ دوَّنها خلال الندوة، وقد أخذ جذعه في الانتصاب، مع تلوُّن صوته بدرجات محسوبة بين الدفء الهادئ والارتفاع، واتخاذ ملامحه تدريجيًّا هيئة جادة مسيطرًا بذلك على انتباه الحضور:

- لهذا... لن أتلو على مسامعكم الأفكار التي قضيت أيامًا في إعدادها لهذه الندوة؛ فقد شبعنا تنظيرًا ومضغًا لأفكارٍ أحسب أن الجميع يعرفها، من دون أن يملك أحد القدرة على تحويلها إلى سلوك. سأتكلم كما يليق بشخص يجلس بين أصفيائه، وكأي كهلٍ قارَب الستين سوف أستدعي بعض الذكريات الخاصة التي تصل حد الأسرار مع فنانين معروفين، ولنتأمل كيف يمكن للفن أن يقف بوعيٍ ضد التطرف والإرهاب، وكيف يقف أحيانًا أخرى - ربما بلا وعي - مع التطرف

والإرهاب وهو يحسب أنه يُحسن صنعًا.

كأنما أصابها سِحر؛ تركزت أعين كل من في القاعة المزدحمة عليه بعد هذه المقدمة غير المتوقعة، حتى مقدِّم الندوة الذي يعرف ألاعيبه. انشغل الباحث الشاب في محاولة فهم ما سمع للتو: أهو ثناء أم هدم مباشر لجهده وأفكاره التي سهر في إعدادها، بوصفها من الكلام المكرور الذي مضغناه كثيرًا، حتى فارقه الطعم والرائحة؟ أما هو فقد أخذ، بمهارات لاعب سيرك محترف، في سرد ذكرياته مع نجوم تمثيل وغناء، لا رابط بينهم سوى انتقالهم جميعًا إلى جوار ربهم.

تَمكن أن يشعل القاعة أكثر من مرَّة بالضحكات، والتأوهات، ودموع الشجن، بعد أن وزع نظراته المدقِّقة المحمَّلة بالحنين، الممتزج بالدموع المكتومة مرة، والانتباه الزائد المقترن بارتفاع الحاجبين مرة أخرى، وغمزاته، وابتساماته المنتشية، أو المتألمة. ألقى في روع كل شخص من الحضور بأنه يراه، وأنه هو بالتحديد المقصود بالكلام. صال وجال متخطيًا الوقت المحدد له، ثم بعد برهة صمت رفع خلالها وجهه للسماء، مختتمًا العرض بجملة قطَّعها بأداء مسرحي، جعل آهات الإعجاب تنفلت من الحناجر:

- بلا مبالغة... هكذا... يمكن بسهولة... طرد شبح الإرهاب من أجسادنا وعقولنا، وبسهولة أكثر يمكن أن تكون عقولنا وأجسادنا سكنًا له... شكرًا لكم.

كان الإعجاب الذي انتزعه غامضًا. أما الباحث الشاب، فقد سقط في حيرة أفقدته الاتزان! لم يفهم قيمة هذه الثرثرة الممتعة، ولم يقوَ على تسميتها ثرثرة. زادت الجملة الختامية من سرعة الدوامة العنيفة التي لفَّت عقله، بعد أن أصابه شك كبير في طريقة بحثه وتفكيره. شعر أن هناك عمقًا دفينًا يملكه أصحاب الخبرة الكبيرة، وعليه بذل المزيد من الجهد للوصول إليه.

«أتعرف يا صديقي، ولو أنك لا صديقي ولا يحزنون... أنا لا أستطع التعبير عن موت تفوح روائحه من كل شيء. لا أبالغ يا أفندي والله... كل شيء. نحن نتحلل ولم نزل نلهث وراء أوهام خلقها لنا... من الذي خلقها لنا؟ لا أعرف... هذه مصيبتي، يملؤني شعور بعينه... لكنني عاجز عن التعبير. طيب... فكِّر معي قليلًا يا صديقي، هل قلت لك إنك لا صديقي ولا زفت؟ المهم... أتتابع أفلام هذه الأيام المرعبة في تفاهتها؟ هؤلاء الحمقى الذين يسعون لانتزاع ضحكات من بشر منهكة ذاهلة، عن طريق السقوط في حمامات السباحة ولمس مؤخرات النساء، والسخرية من الفن التشكيلي والأوبرا؟ هل ترى شكل الأتوبيسات الحمراء التي تشبه سيارات نقل الموتى، وأجساد الناس تنزُّ منها مثل جثة واحدة ضخمة تفرقت أعضاؤها بين الشوارع؟ أتعرف يا أفندي، أنا أمشي من جامعة القاهرة حتى المنيرة كل يوم لأحفظ كرامتي؟ دعك من هذا كله، ألا تشعر بصمغٍ يسيل من أذنيك وعينيك بسبب لزوجة ألحان وردة، أو ملابس فايزة أحمد وانفعالاتها المبالغ فيها على المسرح، هل سمعت الكارثة التي غنتها أم كلثوم قبل أشهُر من موتها؟ حاوِل أن تستحضر أغاني عبد الحليم الأخيرة، لا أعرف كيف لا تشمون رائحة الموت فيها؟ لا... لا... لا أقصد موت عبد الحليم نفسه، أطال الله في عمره، بل أعني موت شيء أكبر، لعله روح عامة، أو حُلم عظيم أشعله عبد الناصر، قبل أن يتكالب عليه قوَّادو العالم جميعًا، ثم يوجهون الضربة الأخيرة عن طريق وكيلتهم في المنطقة إسرائيل. الكل يشارك في جريمة السكوت عن موتنا وتحلُّلنا أمام أعيننا. بمناسبة العيون... أرى أشعة بلاهة تنطلق من عينيك... أقول لك الموت... الموت... الموت».

انتفض من السرير كمن ضربته شرارة برق. أنفاسه متلاحقة، والعَرق يتصبب من وجهه، والصوت يملأ فراغ الغرفة حوله بكلمة «الموت». أزاح الغطاء بيد مرتعشة محدِّقًا في ظلام الغرفة. مد يده إلى زجاجة المياه الموضوعة على الكومودينو. شرب جرعتين، ثم تحرك دون تفكير باتجاه الصالة. كاد أن يسقط حين تَعَثر في ملابسه، التي نزعها وعلى غير عادته ألقاها على الأرض ليلة أمس، وهو يسابق انهيار جسده نحو السرير. جلس إلى منضدة الطعام واضعًا رأسه بين يديه وقد بدأت أنفاسه تهدأ تدريجيًّا. لم يزل الصوت يتردد في أذنيه.

- أي جنون؟ ما الذي يحدث؟ من أتى بمراد إلى أحلامي؟ هو يوم نحس بلا شك؛ عارف عبد الجواد، وكريم المليجي، ثم الختام بمراد.

قفزت أمام عينيه الضحكة الخافتة التي تبدو كأنها تتجه إلى داخل صدر مراد لا إلى الخارج، ثم تنتهي بسعال مكتوم. أخذ يستدعي الحلم الذي أفزعه. لم يكن يعرف بالتحديد ما الذي ضيَّق صدره إلى هذا الحد، وجعله يستيقظ كمن رأى ملاك الموت يمد مخالب زرقاء ليأخذ روحه. الحلم عادي جدًّا جدًّا: مراد يتفلسف كعادته طوال حياتهما قبل أن يختفي. لكن لماذا مراد؟ ولماذا الآن؟ لم يزل يتذكر الموقف الحقيقي الذي اختار اللاوعي أن يلقيه أمام عينَي حلمه، يذكر بوضوح انتفاض مراد

ساعتها مهمومًا متجهم الوجه، من دون أن ينهي كلامه كما اعتاد بإحدى النكات التي تلقي بحديثه كله في منطقة رمادية بين الجد والهزل.

جاهد شبح ابتسامة أن يغتصب شفتيه حين تذكر كيف استفزه كلام مراد الذي بدا صاعدًا من جوفه هو. شعر ساعتها في عمق سحيق من روحه بجهل فادح، حاول أن يخفيه بهزات رأس محسوبة توحي بأنه مستوعب للكلام الذي يرن بمثل رنات صوت مراد في الحلم. لم يدرِ كيف تَمَكن مراد، كأنه ساحر، من أن يسمع صوت الرياح التي تُصفر في رأسه هامسًا في أذنه:

- لا تحاول... أشعة بلاهة عبقرية تنطلق من عينيك في كل اتجاه.

تَسَبب هذا الموقف في عكوفه أشهُر الصيف على قراءة كل ما استطاع تحصيله من كتب عن عبد الناصر وفترته، التي لم يكن قد مضى أكثر من خمس سنوات على انقضائها في ذاك الوقت. كان قد لاحظ سطحية معرفته بما يتكلم عنه أقرانه، قبل أن يسعى لمحو جهله بقضايا اشتعلت حوله في ساحة الجامعة، وتجمعات وسط البلد، رغم مشاركته فيها بكلام نيئ مبهم. أعجبه ما كتب توفيق الحكيم وزكي نجيب محمود، لكنه وجد ضالته في رواية الكرنك الصادرة حديثًا. حرص بعد ذلك على أن يستعرض آراءه بصوت مرتفع في حضور مراد، متجنبًا توجيه الكلام نحوه. كان يستعيد بعض مشاهد الكرنك، ويُطنطن بكلمات متناثرة لتوفيق الحكيم اقتطعها من كتاب عودة الوعي. لسنوات طويلة غاب مراد حتى ظن أنه قد نسيه، لكنْ ها هو يقفز بلا استئذان في أحلامه.

كان مراد أكبر سنًّا من زملائه؛ فقد عاد لمقاعد الدراسة في كلية الآداب، بعد فترة من العمل مهندسَ بترول. الأهم أنه فنان تشكيلي توقف منذ سنوات عن الرسم، لكن لطشة الفن جلية في كل ما يفعل. بدأ حياته مفتونًا بـ□ان جوخ ومونييه. في بداية الستينيات فاز مراد بالمركز الأول في مسابقة رسم كبيرة. اسم لوحته الفائزة «الثعلب السجين»، وهي تمامًا كعنوانها: ثعلب داخل قفص حديدي يلوي جسده معطيًا ظهره للناظر، ومتحركًا نحو عمق القفص. ثبَّتت اللوحة لقطة الوجه قبل أن يلتفت بعيدًا عن المشاهدين. ذكرت لجنة التحكيم في حيثيات منحِها الجائزة، أن النظرة في عينَي الثعلب كانت فريدة ومدهشة، بما استطاعت أن تصوره من قهر وألم، ورغبة في الحرية، وقوة في الوقت نفسه.

- وحياتك عندي يا أفندي، كان الثاني بعدي في هذه المسابقة محمود السحار الفنان المعروف.

حتى آراء مراد السياسية كانت نغمة نشازًا بالنسبة لأقرانه في الستينيات، أيام كان طالبًا في كلية الهندسة. نصحه كثيرون بإعادة النظر فيما يقول، أو الصمت. ولطالما احتد عليه زملاؤه الذين دخلوا منظمة الشباب.

- بص... لا تنفعل قبل أن تفكر قليلًا... بص... بص على نفسك... هياج أعمى كالذي صاحَب أخاك هتلر وابن عمه موسوليني... نحن في قلب فاشية قومية... لكنها رائعة... صادقة، وستحقق الكثير على الأرض... لكنها ستهدم الكثير داخل الناس. لا تنظر لي بقرف هكذا يا أفندي... طيب يا

سيدي... يحيا الزعيم وصلِّ على النبي.

حين اشترك مراد بفدائية مدهشة في إخماد حريق بمعمل تكرير البترول في السويس حيث كان يعمل، التقاه الرئيس عبد الناصر ليمنحه شهادة تقدير، هو ومجموعة أخرى من الشباب:

- يا أخي... عبد الناصر له هيبة... نظراته مثل صقر طيب.

ضحك طويلًا، حين سأله أحد الزملاء من أعضاء منظمة الشباب، أن يُحَدثهم عن شعور الحماس والسعادة حين التقت كفه بكف الزعيم:

- هل قررت بالنيابة عني أني تحمست وكنت سعيدًا؟! شوف يا أفندي... كنت مشغولًا بتأمله... وتمنيت أن أرسم له بورتريهًا.

بعد حرب أكتوبر قرر مراد دراسة الفلسفة. كان الطلاب يلتفون حوله كلما تَحَدث، أو دخل نقاشًا مع أحد المنتمين للتيارات الفكرية المتلاطمة في الجامعة آنذاك. لم يتآلف مراد مع شلة عارف عبد الجواد وكريم المليجي اليسارية، المشهورة بمواقعها الكثيرة ضد الإخوان ونظام السادات، بل لم يكن متآلفًا مع أية شلة، ولعل هذا ما جعله محط أنظار زملائه وزميلاته.

- ما الذي أتى بك الآن يا مراد؟ حسبت أن شبحك قد فارقني منذ فترة طويلة.

قام مترنحًا ليكتشف أن الليل لم يزل محيطًا به، جرجر ساقيه باتجاه المطبخ. فتح الأجزخانة الصغيرة، وتناول حبتين من مُسكن قوي. شعر مع رشفات القهوة الأولى بتسكين خفيف للصداع، الذي ألمَّ به بعد جرعات الويسكي المعتق الزائدة في الليلة السابقة. في محاولة لتجميع ما تناثر في صدره، قرر أن يستدعي ما مر في نهاره، منذ توجه إلى الجامعة، حتى انتهت به الحال مبتلًّا بعرقه في المطبخ مع فنجان قهوة مُرَّة.

بدأت أعصابه في الاسترخاء مع اقتراب الندوة من نهايتها، من دون أن يحدث أيُّ شيء مما كان يخشى. لولا ذلك الشاب الذي وقف بهدوء طالبًا الكلمة. كان مشعثًا طليق اللحية والشارب، يرتدي جاكيت جينز أزرق وحذاء رياضيًّا، وقد التفَّت حول عنقه كوفية طويلة. ذكَّره بالطلاب القوميين والشيوعيين في السبعينيات. حاول مقدِّم الندوة أن يتجاهل هذا الشاب، لكن عددًا من الطلاب بدأ في رفع الصوت مناديًا باسمه؛ لذا وعده المقدم بأن يكون المتحدث التالي والأخير.

* * *

لطالما رفض إقامة ندوات في الجامعة، أية جامعة، فهناك دومًا - حتى في الجامعات الإقليمية - ذلك النوع المشاغب النابه من الطلاب الذي يمكنه صياغة أفكاره بحدة واستفزاز. حين وصلته الدعوة من كلية الحقوق بجامعة القاهرة، قرر رفضها في البداية دونما تفكير؛ فهو يتذكر بوضوح ساطع كيف كان عارف عبد الجواد وكريم المليجي يتلذذان بسلخ ضيوف الندوات، خاصة إن كانوا من الشيوخ أو من الكُتاب المؤيدين لحكم السادات. لكنه قرر قبول الدعوة في نهاية الأمر، بعد تأكيد نائبه أن حال الجامعة تغيرت ككل شيء في البلد. وصف له النائب أشياء لم يكن يتخيل وهو طالب أن يحدث أبسطها خارج أسوار الجامعة. أفاض النائب، وهو تركَ له أذنيه لأكثر من عشر دقائق، في وصف انهيار الجامعة، وحال الأساتذة الذين صار جُلهم تاجر مذكرات، وكيف اخترعوا أساليب لإجبار الطلاب على الشراء، مثل أن يضع الأستاذ ورقة بلون مختلف في نهاية المذكرة يقوم الطلاب بكتابة أسمائهم عليها، ثم قطعها وتسليمها له، أو الاتفاق مع مكتبات «بير السلم»، على أن يقوم الطالب بالتوقيع في كشف حين يشتري المذكرة.

لفت نظره ما قال النائب عن عداء الأساتذة لذلك النوع المستفز من الطلاب، فطلب منه أن يوضح هذه النقطة.

- نعم... نعم يا سيدي، أقصد هؤلاء الطلاب الذين يظنون - وهم الجهلة معدومو الخبرة - أنهم قادرون على تغيير العالم بأفكارهم النيئة، وحماستهم ذات الرائحة المشبوهة. هم غالبًا متطرفون دينيًّا، أو قوميون، أو من المموَّلين خارجيًّا تحت ستارة حقوق الإنسان والمراكز البحثية وما إلى ذلك. أقول لسيادتك بثقة كاملة إن الأساتذة المحنكين يقفون لهذا النمط بالمرصاد، من دون أن يتركوا لهؤلاء الملاعين أية فرصة للتشكي أو التظلم؛ فالكبار أصحاب الحكمة والخبرة - خذ بال سعادتك - لا يعادون هؤلاء الثعالب الصغار علنًا، بل يُظهر الأساتذة لهم تعاطفًا أمام بقية الطلاب، ولعلهم يتساهلون - أي واللهِ كما أقول لجنابك - في عدم شراء هؤلاء للمذكرات، وربما منحوهم نُسخًا مجانية، ثم تكون الضربة القاضية التي لا قيام منها في التقدير النهائي للمادة، وأين سيذهب أطفال مغرورون أمام دهاء أساتذة عركتهم الحياة؟ الخلاصة أن الأساتذة يقصمون ظهر هذا النوع؛ لا بالرسوب، بل بأن يُنجحوهم ولكن بلا تقدير، مقبول بأقل درجة، ليقضوا بذلك على حلم من كان

يطمع منهم في التعيين كمعيد، وغالبًا لا يتمكن أحدهم حتى من إكمال الدراسات العليا. نعم نعم، لم يَعُد في الجامعة إلا طلاب عِلم حقيقيون، كل همهم النجاح، ولا يشغلهم سوى أمور تليق بسِنهم من صراعات حول كرة القدم، وألعاب الفيديو، وأغاني الشباب، والرحلات وما إلى ذلك. أصبح الطلاب الآن يعرفون حجمهم جيدًا ويسيرون بجوار الحائط، بل بداخله، أي والله بداخله.

ورغم ما ألقاه كلام النائب في قلبه من طمأنينة، بقيت مخاوف غامضة، مبعثها مَشاهد محفورة في ذاكرته عن جامعة القاهرة أيام كان طالبًا فيها. لكنه قرر في نهاية الأمر أن يقبل الدعوة.

* * *

- يا لهيبة هذا المكان!

ظلت هذه الجملة تتردد في رأسه، وقد تعلقت عيناه بالقبة المشهورة منذ ظهرت أثناء نزول السيارة من فوق كوبري الجامعة. لم يستطع أن يُبعد ناظريه عنها، وقد انفتح الأفق عن شاشة ضخمة تتابعت عليها مَشاهد مبعثرة. استطاع أن يميز وجوه فادية وعارف والمليجي والدكتور «تقصد إيه» وعم ربيع فراش القسم. مرت أمامه في ثوانٍ طرقات الجامعة، شعر بدقات ساعتها تضرب فوق صدره. تلاحقت أنفاسه حين كانت السيارة تمر من الباب الكبير باتجاه كلية الحقوق، ولم يَعُد يرى شيئًا أو يشعر بشيء. كاد أن يطلب من السائق العودة من حيث أتوا، لكنه تراجع، وربما لم يجد صوته.

حين بدأت الندوة شعر برجفة خفيفة، فقرر منح نفسه بعض الوقت. انتهى مقدِّم الندوة من الترحيب به مُفسحًا له المجال:

- هل تود حضرتك الوقوف خلف المنصة، أم الكلام من مكانك؟

- لا لا.. سأتحدث جالسًا.

أعلن عن سعادة حقيقية بوجوده في هذا المكان العريق، ثم أخذ يحكي بعض المواقف أيام كان طالبًا في الجامعة، إلى أن شعر باشتعال وثقة يعرفهما في نفسه. هذه المرَّة وصل إلى درجة من الحماس الحقيقي كان قد افتقدها منذ سنوات، ومع هذا كانت الأفكار التي يطرحها محسوبة بدقة، لم تخلُ من مغازلة أو اتقاء لبعض التيارات، التي استطاع أن يميز أفرادها في دخوله للقاعة، وأثناء الدقائق التي تَحَدث فيها مقدِّم الندوة. لاعب ترابيز يسير بحذر الخائف ومهارة الخبير فوق الحبل، تكلم كثيرًا عن العلم كسلاح وحيد لبناء المستقبل، وصناعة العقول التي تحتاجها الأمم في صياغة ممارساتها الديمقراطية. بسرعة عدل ممارساتها الديمقراطية إلى تجاربها الديمقراطية حين وصلته ضحكات مكتومة من بين الطلاب، الذين تحولوا، بعد انطفاء أنوار الصالة، إلى كتلة سوداء مخيفة، لولا ومضات تناثرت هنا وهناك من هواتف محمولة انشغل بها أصحابها عما يقول.

برشاقة أجهدته، تَمَكن من الاحتفاظ بحماسته، وهو يمزج بين دور العلم والفعل السياسي في المجتمعات النامية. كان يمنح نفسه فرصة التقاط الأنفاس باستخدام بعض الأفكار والقفشات المُعدّة

لمثل تلك المواقف:

- أقول «نامية» ولا أستخدم هذا التعبير المشبوه «دول العالم الثالث»؛ فهي تسمية تمثل إهانة لشعوب عريقة. العجيب أنها تسميات اخترعتها دول، عُمْر أكبرها أقل من عمر الفأس التي تركها لنا جدي معلقة على حائط بيتنا القديم في البلد.

أكثر ما أتعبه واحتاج إلى كل رشاقته الذهنية، كان التحذير من المزج بين العلم والعمل السياسي الصريح؛ ليُهون في النهاية من أهمية أن يشارك الطلاب في أي نشاط سياسي، بل ويجعل من تلك المشاركة خطرًا على مستقبلهم، ومستقبل الوطن الذي يحتاجهم الآن طلابًا لا أكثر، كما أن العمر أمامهم مديد لمن أراد الالتحاق بعد ذلك بحزب أو نقابة. وكالعادة، اختتم كلامه الذي طال لأكثر من ساعة بجملة غامضة، تبدو مثل كبسولة يجتمع فيها خلاصة ما أراد قوله، وبتقطيع مسرحي خاص:

- إن كانت السياسة فتنة... فسياسة العالِم وفتنته... هي العلم، والسلام عليكم.

تناثرت خبطات أكف تشبه التصفيق من جوانب القاعة الممتلئة، وهو أكثر ما فاجأه. حلقة مفقودة مثَّلت له علامة استفهام كبيرة. لم ينفعل الطلاب بمثل ما توقع، ولا حتى بنصف ما يحدث في أوساط المثقفين وندواتهم، رغم ما بينه وبينهم من اختلافات ومعارك.

* * *

طرح عليه طالبان أسئلة عرف فورًا أنها مُعَدة لهما من الأستاذ مقدِّم الندوة، وحين جاء دور الطالب المشعث ليعلق أو يلقي سؤالًا، سَرَت همهمة في القاعة أثناء صعوده إلى خشبة المسرح، وهو لم يقف وراء المنصة الخشبية التي تُخفي ثلثَي جسد الواقف خلفها، والمنبوذة على طرف المسرح، بل أمسك برأس الميكروفون بعد أن حرره من القاعدة المعدنية، ثم دفع المنصة نفسها نحو منتصف الخشبة. وقف أمام المنصة ثم اتكأ بذراعه على جانبها الأيمن، بعد أن أصبحت في المنتصف تمامًا، حتى إنها أخفت جزءًا من المنضدة التي يجلس عليها ضيف الندوة، وقد ثنى ساقه قليلًا، واضعًا القدم اليسرى بعد القدم اليمنى كمن يقفون على نواصي الحارات. صمت الشاب قليلًا حتى هدأت همهمات الطلاب تمامًا، ثم تحدث بثبات وهدوء وهو ينظر نحو مقاعد الطلاب:

- أنا أتابعك منذ سنوات، لكن لم تأتِ فرصة من قبل لأُعبر لك عن انبهاري بكل ما تفعل وتكتب، أنت مبهر حقًّا يا أستاذ. شخصيًّا كنتُ مستمتعًا بكل ما أبدعت الليلة؛ النكات التي طرزت بها خطبتك العصماء، وهي خطبة وليست محاضرة كما تعرف، وأثق أنك لم تُحَضر لها. أبهرتني أيضًا المغالطات المنطقية المرعبة التي أشهدُ لك بالتفنن فيها، وهي إبداع رفيع بلا أدنى شك. أنا أساسًا منبهر بإخلاصك وتفانيك... تفاااااا...نيييييك، وأنت طبعًا تعرف لمن وعلى من. لكن اعتراضي الوحيد على هذه الندوة هو ببساطة كالآتي: يا سيدي... يا سيدي... يا سيدي، أرجوك أن تنتبه في المرات القادمة لهذا الأمر الرهيب؛ فلا يمكن مطلقًا ارتداء كرافتة أخضر زرعي على جاكيت أزرق بيبسي، هذا صعب.. صعب جدًّاااااااا.

نزل الشاب بعد آخر كلمة وهو يشعل سيجارة متخذًا طريقه إلى خارج القاعة. لم يستطع مقدِّم الندوة أن يوقف الشاب الذي تكلم بهدوء شديد وتواصُل ناعم، من دون أن يبدو في كلامه أيُّ تجاوز. ما مزق قلبه هو رعبًا، وظل في أذنيه حتى بعد أن انتفض مدعيًا الغضب، هو موجات الضحك والتصفيق الهادرة التي تلت كلمات الشاب، وظلت تطارده حتى خرج من جانب المسرح. كان أكثر ما يخشاه أن يتحول التصفيق إلى هتاف، وأن يُبلور الطلاب ضده جملة بذيئة، أو لقبًا ساخرًا مما تلوكه صحف المعارضة باستمتاع. تساءل بصمت:

- لماذا تحمس الطلاب بعد كلام هذا البوهيمي الوقح إلى هذا الحد، ولماذا يضحكون معًا بسبب كلمة معينة تبدو عادية بالنسبة لي، أو بسبب طريقة خاصة ينطق بها إحدى الكلمات؟

شعر أنه يتحدث الصينية، أو ربما هم من أصبحوا يتحدثون لغة لا يعرفها.

* * *

بعد أن ركب سيارته بسرعة، متجاوزًا الأساتذة الذين حاولوا اللحاق به واسترضاءه، شعر أن كل خلية في رأسه قد انفصلت عن جارتها، وبعضها دخل في صراع حاد مع البعض الآخر. لم يحدث له أن شعر بمثل هذا الاضطراب من زمن طويل. تبعثرت أفكاره بصورة لم يعرفها عن نفسه، هل يجب عليه الانتقام من الجحش نائبه الذي جر رِجله إلى هذه الندوة؟ أتُراه كان بريئًا حين بذل هذا الجهد الكبير في إقناعه؟ مَن هذا الطالب؟ لماذا يبدو تبريد الهواء في السيارة ضعيفًا؟ أين الهاتف النقال؟ صاح:

- اللعنة... كانت الأمور تسير بصورة معقولة حتى ظهر إبليس متجسدًا في صورة طالب بوهيمي وقِح. مَن هذا؟ ومن وراءه؟ هل للأمر كله علاقة بالجحش؟ لكن كيف؟ لماذا لم أتمكن من السيطرة على القاعة؟ ولماذا ترك الطلاب الملاعين هواتفهم التي التهوا بها طوال الندوة حين صعد هذا الوغد وبدأ إطلاق رصاصاته؟ شيوعي؟ إخوان؟ تمويل خارجي؟ ارفع التكييف قليلًا يا محمود؟ أين هاتفي؟ اللعنة.

حاول أن يوقف سيل المشاعر الموجعة التي تفجرت من منابع كثيرة ظنها قد غارت في روحه، لكنه فشل في ذلك تمامًا. الانهيار وشيك ولا يتناسب مع ما حدث. ارتفع صوته محدثًا نفسه:

- ندوة فاشلة ختمها طالب بوهيمي وقِح، الموضوع بسيط.

الأسوأ كان بانتظاره، حين قفزت إلى ذهنه صورة عارف عبد الجواد وكريم المليجي. لا يدري كيف تَحول وجه الطالب «البوهيمي الوقِح» إلى وجهيهما معًا، نعم، كلاهما كان يُطل من عينَي هذا الشيطان، ويوجهان إليه نظرات سخرية قاسية يعرفها جيدًا، في حين كان هو ينكمش في بدلته «السينييه»، حتى لم يَعُد هناك سوى البدلة وقد ظهرت في فتحتها أعناق كثير من الضيوف، الذين وضعهم حظهم التعِس أمام عارف والمليجي في السبعينيات. خيال مضحك، لولا ظهوره في لحظة مريرة، جعلت الأعناق المختنقة في مكان عنقه تتلوى بألم مرعب، ورؤوسها تصطدم بصورة

موجعة وكوميدية، في حين أخذت وجوههم تتقلص وتنبسط بلا تجانُس. صفع وجهه بكلتا يديه أكثر من مرة، محاولًا أن يطرد هذه الأشباح التي سكنت عينيه، ثم أمر السائق، الذي اصفر وجهه، بأن يتوجه إلى فندق شبرد، وأن ينصرف بعدها.

تنفس براحة حين وجد منضدته التي تحتل الركن الأخير المعتم من البار خاوية. بعد كأسين متتاليين من الويسكي الصرف، داخَله شعور خفيف بالراحة والاستهانة، لكن ظلالًا متماوجة من نظرات الشاب، التي قفز منها عارف والمليجي، ظلت تضرب عينيه، ولم تختفِ تمامًا، إلا بعد أن أتى على نصف زجاجة كاملة من الويسكي المعتق. أشار للنادل طالبًا الحساب، وسيارة ليموزين تابعة للفندق.

لم يكن بحاجة لأن يدور دورته المعتادة حول المربع السكني، وفي الحقيقة لم يكن يقوى، لكنه صعد بحكم العادة إلى الدور الثالث، ثم نزل مترنحًا إلى الدور الثاني حيث شقته. دخل وأغلق الترابيس، ثم أخذ يفك أزرار القميص وهو في طريقه إلى غرفة النوم. لبس البيچامة بعد أن ألقى ملابسه على الأرض كيفما اتفق، ثم ترك جسده يسقط على السرير كمن يهوي من أعلى.

في كل مرة أخذ موقفًا واضحًا كان يدفع الثمن. بدأ الأمر حين رفع صوته أمام أبيه مدافعًا عن أمه، وهو ابن سبع سنوات. طار في الهواء إثر صفعة هادرة من كف الأب الذي، وبلا تفكير أو تردد، أمسك بعدها بعصاه الغليظة وانهال على الجسد الصغير المتكور في ركن الغرفة. هذا الخط الغائر المتعامد على حاجبه الأيسر هو الأثر الباقي لإحدى تلك الضربات التي سحقت جسده وروحه. المرَّة الثانية كانت بعد موت أبيه، حين وقف مطمئنًّا أمام ناظر المدرسة ليحكي ما قاله الأستاذ «شمعي» في الفصل، وكيف أنه هددهم برسوب محتوم إن لم ينضموا طوعًا إلى مجموعات الدرس الخاص. لم يتوقع أن يكون الجزاء صفعة ثانية على الخد نفسه من الأستاذ شمعي، ثم فصله من المدرسة لمدة شهر. عرف بعد ذلك أن للناظر نصيبًا فيما يجنيه المدرسون من دروسهم الخاصة، ولم يكن لينجح في هذا العام لولا ذهاب أمه إلى شمعي، وتذلُّلها كي يعفيه من الدرس الخصوصي الذي يعجزها ثمنه.

في الجامعة كان قد تَعَلم درس الحياة؛ مر بين الجماعات السياسية والدينية، وحتى أُسر النشاط، متفرجًا لا أكثر. حين طلب منه أحد أساتذته أن يشهد بما حدث في مواجهات عام ١٩٧٢، تبِعه إلى مكتب رئيس الجامعة، لكن الدنيا بدأت تغيم ولم تقوَ ساقاه على حمله، فسقط مغشيًّا عليه، ولم يحاول بعدها الاقتراب من هذا الأستاذ. راقب بفزعٍ وبفرحةِ الناجي ما حدث لكريم المليجي وعارف عبد الجواد، حين ارتفع صوتاهما في معارضة السادات. سألته فادية يومًا عن رأيه فيما يدور بالجامعة، وما حدث لزملائهم، فقال:

- للحرية ثمن، ولا بد أن ندفعه جميعًا.

وحين ناقش الأحداث نفسها مع زميلٍ كانوا يعرفون أنه دسيسة من الأمن، قال:

- لا داعي للثقة الزائدة - ونحن ما زلنا نُكون شخصياتنا - في أننا نعرف كل شيء؛ لندع أمور الحُكم للمتمرسين عليها.

أكثر ما لفت نظره في هذه الفترة هو سطوع نجم سلطان؛ شاب من بلدتهم لم يُكمل تعليمه الجامعي، بعد أن قرر دخول عالم التجارة المفتوح. أتى سلطان إلى القاهرة بوصفه الذراع اليمنى للحاج عبد المهيمن عضو مجلس الشعب، ثم أصبح مسؤولًا عن أعمال حضرة النائب في القاهرة، والمتصرف في شقته الصغيرة الكائنة في حي إمبابة؛ يفعل فيها ما يحلو له، ويستقبل فيها من يشاء. هو نفسه نزل ضيفًا على سلطان في هذه الشقة كثيرًا، حين كان يتهرب من أم بطة صاحبة المنزل الذي يقطنه، على أمل أن يجد وسيلة يكمل بها نقود الإيجار.

لن تتمحي من ذاكرته الليلة التي قضاها على سلم العمارة أمام باب الشقة، ساعتها رفض سلطان أن يفتح له الباب قبل أن ينتهي من مهمته. كان صوت فتاة الليل يصله عاليًا مفتعلًا، لم يستطع أن

يحدد ما إذا كان سلطان قد تجاهله، أم أن خبطاته على الباب كانت واهنة مرتعشة، حفاظًا على خيال ممتع فتحته الأصوات الآتية من داخل الشقة؟ انتهت به الحال متكورًا يكاد يتجمد من البرد أمام الباب. مع بشائر الصبح خرجت الفتاة، مرت بجواره سريعًا دون أن تلمحه، خلفها ظهَر سلطان نصف عارٍ بجسده السمين المترهل وهو يضع عباءته الصوف حول جسده. نظر إليه نظرة العارف بوجوده، ثم دعاه بإشارة من يده ليدخل.

استخدمه سلطان أكثر من مرة في توصيل بعض الطرود لأشخاص متنفذين في أنحاء القاهرة: هدايا، ونقود، ومخدرات أحيانًا. كان سلطان يُجلسه أمامه ويفتح الطرد معدِّدًا محتواه، وهو يطيل النظر إلى وجهه، كمن يقول له: «حذارِ أن تراودك نفسك على اختلاس شيء». لم يستطع الرفض يومًا رغم شعور الهوان؛ فهو يكسب من هذه المشاوير ما يرحمه من شرٍّ أم بطة وعضة الجوع معًا، ثم هو يراقب ما يدور حوله بشغف من يتعلم، ويصنع أرشيفًا خاصًّا يعرف أنه سيحتاج إليه يومًا. رأى في شقة إمبابة ما لم يخطر له على بال؛ راقب خلسةً كيف تمارس فتيات الليل عملهن مثل آلة حديدية، رغم الأصوات الصاخبة التي تصدر عنهن. لكن ذلك لم يجعله يغامر بالمحاولة مع إحداهن. في ليالٍ أخرى شهد ندوات شعرية وفكرية مصغرة استعدادًا للانتخابات، تدور كلها حول كيف نرسم صورة مثالية للحاج عبد المهيمن، وكيف نشوِّه الخصم بأية وسيلة. لافتات الانتخابات كانت تُعَد في الشقة قبل سفرها إلى بلدتهم. يقوم هو وسلطان ومن حضر معهم بصنع فجوات واسعة متناثرة على طول اللافتات القماشية؛ حتى لا يقطعها من يسميهم سلطان «هاموش الغيطان»، ويستخدموها في صناعة الملابس. كم كره الإحساس - وهو يغرس المقص في جسد القماش - بأنه هاموشة، ضمن كتلة سوداء ضخمة من «هاموش الغيطان»، الذين سيحملون عبد المهيمن فوق أحلامهم حتى كرسي المجلس.

بعد تخرُّجه في الجامعة وبداية عمله كصحفي، انقطع عن زيارة سلطان وشقة إمبابة. مرت سنوات قبل أن يرى صورة سلطان في بداية الثمانينيات مرشَّحًا للحزب، عن الدائرة نفسها التي طالما شغلها عبد المهيمن. سبق اسمَ سلطان لقب «رجل الأعمال الوطني».

ذات يوم كان يعود أحد زملاء الصحيفة في بيته بإمبابة، وجد نفسه وهو في الطريق لمحطة الميكروباص وجهًا لوجه أمام عمارة يعرفها جيدًا. رفع عينيه نحو الدور الثالث حيث شقة سلطان، كانت مضاءة. لفتت نظره سيارة مرسيدس سوداء، تقف أمام مدخل العمارة. لم يستطع السيطرة على فضوله. بعد دقات قوية، فتح باب الشقة شاب بدا توأم سلطان، الذي جاء صوته من داخل الشقة:

- من يا عابد؟

تراجع الشاب مفسحًا مجال الرؤية أمام سلطان.

- واحد يا باشا... نعم، أي خدمة؟

لم يُعِر سؤال عابد اهتمامًا، خطا باتجاه سلطان الذي جلس على الأريكة نفسها التي كانت موجودة من أيام عبد المهيمن وقد ارتدى عباءته الصوفية الفاخرة، وازداد جسده ترهلًا.

- لا تَذكرني يا سلطان؟

بدا الاستنكار شرسًا في عينَي سلطان وهو يعتدل قليلًا مرددًا:

- سلطان؟! لا والله، مَن حضرتك؟

جال بعينيه في المكان:

- تشاركنا هذه الشقة كثيرًا في السبعينيات يا سيادة النائب... أيام الحاج عبد المهيمن الله يرحمه.

حدق فيه سلطان، ثم رفع وجهه للسقف:

- آاااااه عرفتك... أهلًا ياسيدي... تعالَ اقعد.

لمرَّة أخيرة لم يرفض لسلطان طلبه. أشار سلطان إليه وهو ينظر لعابد:

- الأستاذ اااااا...

- مش مهم... مش مهم.

- الأستاذ مش مهم.

قهقه سلطان وابتسم الشاب، في حين غيم عينيه الغضب، بعد أن جرَّ تعليق سلطان سلسلة مريرة من الذكريات المبتسرة. أكمل سلطان التعارف:

- عابد... أخي. قرب خذ لك نفَسين.

انتفض بوقار مُدَّعى متجهًا نحو الباب:

- شكرًا... فكرت أن أسلِّم فقط.

قبل أن يصل إلى الباب لف وجهه نحو سلطان، حاول أن يكون صوته غليظًا وهو يلقي بالكارت الذي أخرجه من جيبه على منضدة قريبة:

- بالمناسبة... هذا عنواني... شرفني في الجريدة في أي وقت.

رفع سلطان حاجبيه وهو يهز رأسه متعجبًا، ثم نهض مسرعًا ليودعه على السلم، بصوت ارتفعت درجة حرارته.

- أوووووه.. ليس الرسم فقط، أنا كنت سمِّيعًا عظيمًا للطرب القديم، وعندي جرامافون محترم، وأسطوانات نادرة لا أدري أين وضعتها... تعرف... أنا لا أحب إنت عمري... أغنية فخمة طبعًا... لكن... فكر واشعر معي قليلًا يا أفندي... عبد الوهاب طباخ كبير، وقد طلب منه الريس جمال شخصيًّا أن يعمل له عزومة، تخيل التوتر والرغبة في استعراض العضلات! وهذا ما فعله الأسطى عبد الوهاب، أعد مائدة بطول خمسين مترًا عليها مائة صنف وصنف، لدرجة أنك إذا جلست إليها تزوغ عيناك ولن تستطيع أن تأكل شيئًا.

لماذا توقفتُ عن الرسم؟ لأني لم أكن مخلصًا. الفن يحتاج أن تجعله حياتك كلها... غير ذلك تصبح كمن رقص على السلم... مثل صاحبك السادات بالضبط؛ لا هو ديكتاتور صاحب مشروع وطني كعبد الناصر، ولا هو ديمقراطي حقيقي يسمح بتداول السلطة.

وقف فامتد جسده بصورة مرعبة، حتى لامس رأسه سقف الغرفة. مد يده ببساطة دافعًا السقف لأعلى، ليبدو بعدها في حجم تمثال رمسيس المنتصب في الساحة الأمامية لمعبد الكرنك.

- هل تعرف أنني فزت بجائزة أخرى في التصوير الفوتوغرافي؟ نعم... أملك كاميرا روسي محترمة، وأصابني هوس منذ امتلكتها في منتصف الستينيات تقريبًا. لم أتوقف عن الخروج مثل أقاربنا السُّواح لتصوير شوارع القاهرة، وناسها بالذات. مفتون أنا بالشوارع والناس. حتى وقت قريب كنت أُنفِّس بالكاميرا عن الفنان الخايب بداخلي، لكن حدث شيء جعلني أتوقف عن التصوير منذ أيام قليلة.

فجأة أصبح يسير إلى جوار مراد على الكورنيش. الهواء الآتي من النيل منعش، والمياه تتدفق بسرعة أكبر من المعتاد. كان رأسه يصل بالكاد إلى ركبة مراد، وهناك شيء يمنعه من النظر لأعلى، لكن الصوت يأتي بوضوح كأنما يخرج من ميكروفون معلق في حزام مراد متوجهًا للأسفل.

- بص يا أفندي... هناك شيء حقيقي جدًّا في الصور... صور الناس تحديدًا؛ نظرات عيونهم، تركيب الملابس، وضع الجسم، وكل ما تنطق به خطوط الوجه. لكن هناك شيئًا زائفًا وخطيرًا... بص... الصور تساعد على تزييف واقعنا خصوصًا لو كان هذا الواقع مريرًا... نعم نعم... الصورة تثبت قطعة من الحياة المتحركة... في اللحظة التي تضغط فيها على زر الكاميرا فأنت تضغط معه زر الإيقاف pause... ثبات معه تسكت كل الأصوات: آهات وضحكات، كلمات إعجاب، شخير اعتراض ورفض، صفافير معاكسة، نداءات باعة، أصوات سيارات مقرفة، حفيف الهواء حول أذنك... وحتى الأفكار التي تجول بخاطرك. من يقوم بهذه الجريمة؟ سيادتك طبعًا... أقصد من يقوم بالتصوير يا حمار... طيب... بص... ألم تشعر يومًا بغرابة حين تنظر إلى بعض صورك أنت شخصيًّا، أو صور أماكن اعتدتَ أن تعيش أو تمشي فيها؟ هناك مسافة مسحورة بين

الحياة التي تشبه فيضان النيل قبل بناء السد وبين الصورة الجامدة الصامتة، رغم الجزء الذي تكشف عنه في أرواح الناس. الصمت والسكون في صور الكاميرا هما جواز مرور للخيال كي يُفلتر الحياة؛ يحذف ويستبقي ما يريد. فوجئت يومًا بأنني أحتاج للصور التي التقطتها بنفسي كي أشعر بصفاء النيل، أو شموخ الهرم، أو جمال المباني الخديوية، فأصابني فزع مرعب - حلوة «فزع مرعب» هذه... تشبه مبالغاتك المعفنة - ولذلك توقفت. صور الأحلام هي الأصدق... أي واللهِ هي الأصدق على الإطلاق رغم لامنطقيتها... أتعرف... حين تقوم الأحلام بتكسير الصور والنِّسب المنطقية، فهي تكشف لك ما تراه بعيون قلبك وروحك وإحساسك... هل هناك فرقٍ بين الثلاثة؟ المهم... جماعة السوريالية هؤلاء فل الفل بصراحة... إمممممم... طيب... صلِّ على النبي... وقم بنا نشرب قهوة.

* * *

ككل مرَّة منذ ظهر مراد في أحلامه، استيقظ بمجرد أن انتهى المشهد. لم يكن فَزِعًا. شيء مختلف لف روحه هذه المرة. تأرجح يمينًا وشمالًا في محاولة للنهوض. أمام فنجان القهوة قرر أن يحاول ثانية كتابة كل شيء، كل شيء بلا مواربة أو تلاعب، ولربما واتته الشجاعة يومًا لنشر مذكراته هذه. لكنه طمأن نفسه بأن الكتابة مبدئيًّا ستكون للتفريغ فقط.

- ما الذي سيتبقى مني بعد هذا الصراع المرير؟ أنا لاعب ترابيز محترف لكن تعِس... هل تنجيني العودة إلى الذاكرة من تلك العتمة التي تظلل روحي؟ نعم... أشعر أن هناك مساحة آمنة بداخلي وعليَّ العثور عليها.

قام بنشاط، أخرج مجموعة كبيرة من أوراق الدشت؛ بروفة العدد الأخير من المجلة التي يحتفظ بها في الكومودينو المجاور لسريره، جلس على طاولة الطعام وبدأ الكتابة على ظهر الأوراق.

«منذ متى لم أجلس لأكتب شيئًا من روحي بلا حساب؟ يااااه.. لا أدري بالتحديد إن كنت فعلت ذلك قَط! كيف ستبدو رحلة عمري إن أنا كتبتها بعينَي مراد؟ مراد... مراد... يا للقسوة... هذا يعني كتابتها بصدق، أيًّا كانت المرارة التي ستترسب في حلقي، ستكون أهون بلا شك من شعور يسيطر عليَّ الآن بالـ... بالـ... بالماذا؟ ربما بالضياع أو الوضاعة التفاهة أو الخواء التام الافتقاد لشيء حقيقي لاح لي يومًا، عرفته ثم أدرت له وجهي ببلاهة الطامع، وجبن من لم يخُض معركة حقيقية في حياته سوى معارك مفتعلة هدفها الوحيد تزييف الحقيقة.

مرت سنة كاملة منذ المرَّة الأولى التي زارني فيها طيف مراد. تلك الندوة... نعم... تلك الندوة والشاب البوهيمي الـ... هذا الذي تسكنه روح عارف والمليجي، ويشبه كل ما فشلت أن أكون. لم يزل مراد بعيدًا. صوته واضح، لكنه دائم النظر في اتجاه آخر، رغم أني لا أحول عينيَّ عنه طوال الحلم، وبعده أيضًا.

لنبدأ بالحلم الأخير. ما الذي كان يقوله مراد بالتحديد؟ أنا أتذكر كلامه عن الصور والحياة،

وكيف هجر التصوير لأنه.. آااه... نعم نعم. يا لغبائي... طوال هذه الفترة لم أفكر في إخراج الصور القديمة. لكن، ألم يحذرني مراد في الحلم من الصور؟ لا بأس من محاولة التذكر بعيدًا عن أي تحيز... فأنا أكتب لنفسي ولست بحاجة للمراوغة».

قام وقد تناثرت دموع قليلة لم يفهمها على وجنتيه، فتح الدرفة المغلقة من دولاب الملابس بصعوبة. هنا يحتفظ بأشيائه الخاصة التي جمعها طوال حياته. ليست لديه غرفة مكتب في البيت، فهو غالبًا يقرأ قبل النوم فقط؛ بروفات العدد الجديد، رواية، ديوان شعر، أو غير ذلك مما يساعد على النوم. في الرف العلوي علبة بونبون من الصفيح تحوي كل الصور، لم يقربها من سنين، تحديدًا منذ انتقل إلى هذه الشقة، ورغم ذلك تركتْ بصماته علامة على طبقة التراب الناعم التي غلفت العلبة. مد يدًا مرتعشة نحو كومة الصور، كلها بالأبيض والأسود، ووجه مراد يطل منها كلها. أخذ مجموعة من الأعلى. الصورة الأولى لمراد في قلب شلة الجامعة وهو منفجر ضحكًا بأمان شديد، وقد مال بجذعه للأمام قليلًا. بدت ضحكة مَن حوله متأخرة عنه قليلًا. غالبًا مراد هو من ألقى النكتة أو التعليق الحرَّاق، وكعادته سبقهم بضحكته المكتومة الصافية المُعدية. الصورة التالية كانت لمراد وحيدًا، يقف كزعيم حربي ناظرًا نحو الأفق، في حين تملأ ساعة الجامعة خلفية الصورة وهي تشير إلى منتصف النهار تمامًا.

عاد بعلبة الصور إلى حيث يجلس. وضعها أمامه. رجع بظهره للخلف رافعًا وجهه للسقف. أخذ نفَسًا عميقًا، ثم نظر ثانية في العلبة. لمح صورة شاردة عن كومة الصور يملأها وجه مراد، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة. شاربه الكث المرتَّب يضفي هيبة غامضة على ملامحه. طيبة عميقة تشع من عينيه تجعلهما مبتسمتان أيضًا. مد يدًا فارقتها الرعشة نحو القلم:

«من أين جاء مراد بهذا الصفاء والاطمئنان؟ كيف صاغ معادلة وجوده بهذا التوازن رغم ما يعاني من مشكلات كان أبسطها عدم قدرته على دفع إيجار شقته الصغيرة؟ هذه الصورة من السنة الثالثة في الجامعة، يظهر فيها مراد فاردًا ذراعيه على وُسعهما كأنما يدعو من يشاهد الصورة إلى حضنه، وبجواره في حديقة الكلية يقف الدكتور «تقصد إيه» ناظرًا إلى الكاميرا بجانب وجهه. كنت أقف خلف مراد، هذه أطراف جسدي تبدو كإطار يحيط به. ها هو جزء صغير من وجهي يبدو كظل باهت. ذراعَا مراد المفرودتان لم تتركا لي مساحة أكثر من ذلك.

أتذكَّر هذا اليوم جيدًا، كان أول يوم نرى فيه الدكتور شرنوبي (ش.ر) العائد من بعثة في أمريكا، راعتنا ملابسه بألوانها المزعجة: جاكيت أحمر مخطط بالطول بقلم أخضر داكن عريض، وقميص أزرق فاقع لونه، بنطال بني، وحذاء أسود لميع، ياقة القميص العريضة يقع نصفها داخل الجاكيت ونصفها الآخر خارجه، بصورة تشبه هيئة المخترع في الأفلام الكوميدية. ورغم تحفُّظي الشديد مع الأساتذة كي لا يتذكر أحدهم ملامحي، لم أستطع السيطرة على لساني. قلت بمجرد أن خطا إلى المحاضرة بهيئته تلك:

- عبقري.

لم يكن صوتي مرتفعًا، لكن الكلمة رنت في القاعة. ارتفعت ضحكات متفرقة، وهو تَحرَّك ناحيتي. مال بجذعه، ثم بدأ وجهه في الحركة نحو الأرض ببطء شديد في الوقت الذي يرتفع فيه بؤبؤَا عينيه باتجاه جبهته، مع تضييق للعين اليسرى. نطق بعد أن اتخذت ملامحه وضعها النهائي:

- تقصد إيه؟

احترت فيما يجب عليَّ فعله، وقد ألجمني اقترابه الشديد منِّي، بوجهٍ أبيض منتفخ بدأت الحمرة تسري فيه. ظهرت لي ارتعاشات جلده كأنها ارتجافات القشرة الأرضية حول بركان على وشك الانفجار. لم أجرؤ على فتح الطريق للضحكة التي عبَّأت صدري، فأكملت الحوار مستجيرًا بكل ما أملك من جدية مُدَّعاة مع هذا المخلوق العجيب:

- حضرتك... عبقري يا دكتور... واضحة... وسمعة حضرتك تسبقك.

استمر على وضعه لثوانٍ كانت كافية لاختبار مدى ثباتي الانفعالي.

اكتشفنا فيما بعد أنه يتخذ الوضع نفسه كثيرًا، قبل أن يطلق السؤال الذي صار لقبًا له بين طلاب الكلية: تقصد إيه؟

الدكتور (ش.ر) هو المادة الخام للريبة؛ لا يمرر أية إشارة تحتمل معنيين، دون أن يفترض الأسوأ، ثم يقترب من مُحَدثه متخذًا وضعه المشهور، ومطلِقًا: «تقصد إيه؟». لو نشرت هذه المذكرات، فسيعرف رفاق الجامعة كلهم الشخص المقصود بهذا الكلام، بسبب أوصافه الفريدة ولقبه الذي غلب عليه.

بعد سنوات من عودته أصبح الدكتور «تقصد إيه» موظفًا مرموقًا في وزارة الإعلام، بكل ريبته وسوء ظنه وضحالة معرفته الصاخبة! نعم، هذا ما اتضح لنا بعد محاولاته المتعالية الفاشلة أن يشرح بعض نظريات الإعلام المرئي الحديثة، التي بدا جليًّا أنه لا يتقن فهمها هو شخصيًّا، لكنه كان يتحدث بصوت مرتفع وبتواصل يمنع من التفكير، مستنجدًا بعدد كبير من أسماء المفكرين الغربيين.

مراد هو من فضح «تقصد إيه»، بعد أن لجأت إليه زميلتنا (ف.ن)، التي أصبحت بعد ذلك مذيعة مشهورة، قبل أن تقوم ببعض الأدوار المساعدة في أفلام السبعينيات والثمانينيات. هي الآن نجمة لامعة، رغم اعتزالها العمل الإعلامي، باستثناء مقالة ذات توجُّه ديني شاحب أقرب للتصوف تنشرها أسبوعيًّا في صحيفة كبرى. كما تظهر بانتظام كضيفة شرف في احتفالات التلفزيون والإذاعة؛ لتلعب بوجهها الجميل وأناقتها الاستثنائية دور الواجهة المشرِّفة للإعلام.

المهم أن مراد أنقذها، وهي بعدُ وردة طازجة، من براثن «تقصد إيه»، الذي استغل غياب والديها للعمل في الخارج، فأحاطها برعاية لزجة، ثم أقنعها، ولا أدري كيف فعل ذلك ابن الجزمـ... بأن تتزوجه عرفيًّا، وأنه سوف يتقدم لوالديها بعد عودتهما ليصبح الزواج علنيًّا. المصيبة

أنه اتخذ من شقتها مسرحًا لزيجتهما القصيرة، بعيدًا عن عيون أم العيال. اختفى «تقصد إيه» تمامًا قبل عودة والدَي (ف.ن) بأيام قليلة، وتم إسناد محاضراته إلى أساتذة آخرين. عرفنا بعد ذلك أنه أخذ إجازة بحثية لثلاثة أشهر وسافر إلى جهة مجهولة.

حكى لي مراد سر (ف.ن) وهو يساعدها على التخلص من هذا الكابوس. كنا نراهما في باحة كلية الإعلام، يجلسان منفردين لفترات طويلة، على غير عادة مراد مع زميلاته في الجامعة، وما أكثرهن في كلية الآداب حيث يدرس، وفي كليات أخرى. لمحته مرَّة يمد يده ليُربت على كتفها وهي تبكي، ثم وهو يميل ليُقبل رأسها بأبوة! ورغم ذلك سألتُه بعدها، بنطاعة أشعرها الآن، عما إذا كانت فادية (ف.ن) قد حليت في عينيه. لم يُجب، رمقني بطرف عينه لثوانٍ جعلت العرق يغمرني، ثم انصرف من دون تعليق.

أول ظهور لـ»تقصد إيه» بعد الإجازة كان يومًا مشهودًا. لمحناه يسير بخطوات واسعة في ساحة الجامعة متجهًا نحو مبنى الكلية، بملابس تشبه البغبغان كالعادة. انتبهنا جميعًا على انتفاضة مراد واندفاعه كالسهم، ثم طيرانه كبطل كارتوني بكل اندفاعه ليرتطم رأسه بوجه «تقصد إيه». سقط كلاهما أرضًا وقد لطخت الدماء وجه الدكتور. أسرعنا جميعًا نحوهما لنجدهما ممددين ومراد يبغبغ بكلمات لم يسمعها أحد منا، بعدها قام وانقاد معنا بهدوء. في حين ساعد بعض الطلاب الدكتور على النهوض، وضع أحدهم منديلًا لكتم الدماء المنفجرة من أنفه، وهو يردد بصورة عصبية:

- تقصد إيه؟ تقصد إيه؟ هه... تقصد إيه؟

بعد لحظات انشقت الأرض عن أفراد الحرس الجامعي الذين أحاطوا بالجمع المتكتل، ثم تَحرَّك الركب نحو استراحة الجامعة. توقعنا أن يكون هذا المشهد هو آخِر ظهور لمراد في الكلية والجامعة كلها. لم يعرف أيٌّ منا ما حدث هناك، فقط شاهدنا عميد الكلية يحث الخطى باتجاه الاستراحة، وخلفه بعض الأساتذة الذين طلبوا منا جميعًا الانصراف. في اليوم التالي فوجئنا بمراد بيننا كأن شيئًا لم يحدث، كنت جالسًا في كافتيريا الكلية حين شعرت بيده تُربت على كتفي. حكى لي تفاصيل مخيفة قررنا أن نُبقيها سرًّا، كما طلب مساعدتي لإتمام المهمة. لم تكن (ف.ن) هي ضحية «تقصد إيه» الوحيدة؛ فقد استطاع أن يجر خمس طالبات أخريات إلى الزواج العرفي. كان ينتقي ضحاياه بدقة، ممن يحلمن بالثراء السريع، أو ممن يعانين من إهمال الأهل مثل (ف.ن). عرفت أن ما فعله مراد لم يكن تهورًا، بل خطة محكَمة:

- وأنا بجواره على الأرض همست في أذنه بأنني أعرف كل ما فعل مع البنات، وأنني استطعت الحصول على بعض أوراق الزواج العرفي. وحين بدأ التحقيق سبقهم الوغد جميعًا وقال إنني كنت متوجهًا بحماس نحوه للسلام عليه بعد غيابه، ثم تعثرت مصطدمًا به دون قصد، ثم سقطنا معًا... حلوف. المهم يا أفندي أريدك أن تساعدني في تنفيذ ما تبقَّى من الخطة.

* * *

ألم في الرقبة أجبره على الاعتدال في جلسته وترك القلم. نظر مرة أخرى لكومة الصور. مد يده والتقط واحدة.

في الأستوديو المشهور بشارع قصر النيل، وقف قبالة الفتاة التي تجلس خلف مكتب الاستقبال. كانت منشغلة بتنضيد عدد كبير من الصور المتناثرة أمامها:

- لو سمحتِ.

- تفضل.

ردت دون أن ترفع عينيها عن الصور التي تقوم بإدخالها في أظرف صغيرة بيضاء بعد ترتيبها.

- أود تكبير هذه الصورة ووضعها في إطار... أسود.

ألقت الفتاة نظرة خاطفة من طرف عينها على الصورة:

- مممم.. أبيض وأسود! سنقوم بعمل بعض الترميمات.

- لا بأس... المهم النتيجة.

ردت وهي تشير إلى صف من الصور الموضوعة في إطارات مختلفة الأحجام على الحائط المجاور لها:

- ما المقاس الذي تريده حضرتك؟

- الكبير... أكبر مقاس.

رفعت الفتاة عينيها لتتأكد مما يطلب:

- ثلاثون جنيهًا.

مد يده بالنقود وهو يتأمل الصورة:

- صديق عزيز... قديم.

مرت عينا الفتاة على الصورة بلامبالاة، نظرت إليه، ثم عادت لما تفعل وهي تغمغم:

- الصورة أحلى.

أنزل الأوراق ببطء من أمام عينيه وقد ارتفع حاجباه إلى أقصى حدودهما:

- واضح أن هذا الكائن الخرافي يقصدني أنا بكلمة الجحش.

بسرعة ألقى عينيه على الأوراق مرة أخرى:

- نعم... نعم... أنا من أشار عليه بندوة جامعة القاهرة... آه يا كلب يا ابن الـ......

الجمعة ١٢ فبراير ٢٠١٦

لماذا لم أستفد من كلام الجحش قبل أن أذهب؟ هل تعمد توريطي.. أم تراه كان حسن النية؟ المؤكد في كل هذا ~~الخرا~~ الهراء أنني تعرضت في ذلك اليوم لأسوأ ضربة في السنوات الأخيرة. لقد زلزلت صيحات الطلاب الحماسية - بعد كلام زميلهم البوهيمي الوقح - كل خلية في جسدي، ولولا نعمة الويسكي لما استطعت النوم ليلتها.

الأسوأ هو ظهور مراد في أحلامي في الليلة نفسها... مراد.. مراد.. مراد

أنزل الأوراق من أمام وجهه ثانية. نزع النظارة:

- يا ابن الجزمة، ألهذا جعلتني أقف أمامك يومها مثل عبد مارق، دون أن تُحول عينيك عن وجهي، وأنا أتلقى أسئلتك الخبيثة كالحمار؟

ازدادت الغصة بعد أن وصف نفسه عفوًا بالحمار.

الأحد ١٤ فبراير ٢٠١٦

غالبا لم يتحول الجحش إلى مرحلة الثعلب بعد..
وربما لن يتحول.

صباح اليوم طلبته.. وبعد أن جعلته يقف أمام مكتبي لدقيقتين وأنا أنظر مباشرة في عينيه سألته فجأة:

- هل تذكر ندوة الجامعة؟

ضاقت عيناه قليلا دونما أي تعبير آخر على وجهه.. وحتى بدون أن يتحرك في جسده شيء سوى ذراعه اليمنى وهو يتساءل:

- الندوة الأخيرة؟! نعم أتذكرها.. ما الذي استحضرها إلى ذهن سعادتك الآن؟!

- لم أستمع إلى رأيك بالتفصيل فيما حدث فيها.

لم يتردد وهو يتكلم :

- ليس غريبا على كل شجرة باسقة مثمرة (لا أدري هل قال باسقة أم مثمرة؟ لكن باسقة هذه تبدو صعبة على الجحش) أن تطالها حجارة المراهقين والحاسدين وأعداء النجاح.. لقد كتبت مقالا بعدها أظن سعادتك قرأته (طبعا لم أغفل) عن تطاول الجيل الجديد على أساتذته.. لقد قصدت هذه الندوة بالذات. ثم لا تنس سعادتك أن الأمر كان فرديا وأن الندوة بحسب رواية سعادتك سارت على خير.

بدا الجحش بريئا وهو يحاول لعب دور المحلل أمامي. صدقته بعد أن تأكدت ~~تماما~~ بنسبة كبيرة أنه لم يكن متعمدا أو متآمرا.

يكفي كلام عن الجنس .. فأنا مرهق
بعد يوم عمل شاق .. وأرجو أن
يساعدني ذلك على النوم .

ألقى بالأوراق وقد تقلصت ملامح وجهه، وملأت عينيه دموع غضب عارم:

- أاااااه يا وغد... الأرض تدور أحيانًا في الاتجاه العكسي دون أن ينتبه الحمقى الذين حشاهم الغرور حتى أعمى أعينهم. هل ظننت يومًا أن حياتك كلها ستصبح في قبضة يدي؟ حسنًا فعلت أُم عزة حين اتصلت بي، وسترى ما سيفعله بك جحش أيها الديناصور المنقرض.

كثيرًا ما يستخدم تاريخه الشخصي ليضرب مثلا، مغلفًا بتواضع مبالغ فيه، لكفاحٍ لا يعرف اليأس؛ كفاح يجب على الشباب أن يُقبِلوا عليه دونما نظر للنتيجة لأنها، بحسب ما يؤكد في نهاية كلامه غالبًا، لا بد أن تكون مبهرة وأجمل من كل توقعاتهم:

- أنا من أقاصي الصعيد، لم أنشأ في أسرة مقتدرة، وأمي، رحمة الله عليها، كانت العائل الوحيد بعد موت أبي المفاجئ. عمِلتْ وناضلت بشرف على ماكينة الخياطة، تمامًا كما ترون في الأفلام القديمة، لتُخرج للمجتمع رجلين ملء ملابسهما؛ فأخي مدرس يربي أجيالًا، وأنا كما ترون ولله الحمد شخص ناجح إلى حد ما. المهم أني عملت منذ كنت في المدرسة الإعدادية في الفاعل، عامِل بناء أحمل الرمل والأسمنت على كتفي، كي أوفر بعضًا من قوتي ومصاريف مدرستي.

تفاصيل صغيرة في قصته تختلف عن الحقيقة، فأمه لم تعمل على ماكينة خياطة، إنما كانت «دلَّالة» تبيع الأقمشة، ومستلزمات الأعراس بالتقسيط لربات البيوت، مقابل فائدة صغيرة، وأحيانًا كانت تخدم العائلات الكبيرة في مناسباتهم. أما هو، فلم يحمل الرمال على كتفه كما يدعي، بل كان يقف نهارًا في مقهى صغير على أطراف سوق البلدة بعد أن ينتهي يومه الدراسي، ثم يعود بعد أذان العشاء منهَكًا ليقضي بعض واجباته المدرسية. في إجازات الصيف، وبعد أن ينهي عمله في المقهى، كان يَتْبع مجموعة من الأشقياء الصغار ليلًا، وهم يقفزون على عربات نقل البطيخ التي تمر على الطريق السريع بطيئة بسبب حمولتها الزائدة.

أشد ما آلمه في هذه الفترة، هو مناداة أقرانه له ولأخيه بـ»ابن عليَّة»، بعد أن تركهم أبوه - الذي لم يمت كما يردد في رواياته - واختفى دون سابق إنذار. لم يزل يتذكر بقايا أحاديث طالت أذنيه بين أمه وجاراتها، اللواتي أحطنها لأسابيع بعد اختفاء زوجها. كن يواسينها، ويحاولن في الوقت نفسه إرضاء فضولهن المنغِّص القبيح لمعرفة سبب هجرانه لهم، وما إذا كانت عليَّة تعرف شيئًا عن وجهته. ألمح بعضهن إلى «الغازية» التي ظهرت في مولد «سيدي الدرديري»، وكيف لاحقها الرجل «الفلتان أبو عين زائغة» في موالد القرى المجاورة ولياليها. سمع إحداهن مرَّة وقد ارتفع صوتها بلا حياء:

- غلطانة يا عليَّة... الرجل يحب المرة اللّونة... وإنتي بصراحة الله تباني أرجل منه مع إنك قمر.

لم يقبل أخوه الأكبر بما عده إهانة مذِلة، فدخل في مشاجرات دامية مع عيال الحارة، ومع أقرانه في المدرسة، حتى توقفوا جميعًا عن مناداته باسم أمه. بقي هو فقط بجسده النحيل وابتسامته المهزومة «ابن عليَّة».

هداه عقله يومًا أن يستعين بشيخ الجامع في محاولة إيقاف تلك المهانة، لكن الشيخ لم يُلقِ له

بالًا. ربَّت على كتفه باستخفاف وهو يردد:

- ألست فعلًا «ابن عليَّة» يا ولد؟ كلنا سننادى بأسماء أمهاتنا يوم القيامة.

لم يجد من يُقيل عثرته، وقد أصبحت وقتها أزمة حياته، سوى أخيه، الذي لم يكن موجودًا طوال الوقت ليحميه من جروح صغيرة كثيرة تلهب روحه، كلما ناداه أحد باسم أمه. هداه عقله أن يخوض الحرب بطريقة أخرى؛ حاول التقرب من أقرانه وإرضاءهم لعلهم يألفونه، ولعله يجد في حياتهم ما يستخدمه في الرد. أما شلة البطيخ فقد انقطع عنها لأشهُر كانت كفيلة بإبعاد الشبهة عنه، ثم أبلغ البوليس عنهم جميعًا؛ إذ لم يكن أفرادها ينادونه سوى بـ»ابن عليَّة». بعدها تَسبب في إحالة أحد أقرانه في المدرسة، وكان أكثر من آذاه بهذا الاسم، إلى إصلاحية الأحداث، بعد أن دس في حقيبة الولد قطعة حشيش، كانت قد سقطت أمامه من أحد رواد المقهى. أرسل إلى نقطة البوليس رسالة تفيد بأن الناظر والأستاذ شمعي يتاجران في المخدرات، ويجبران بعض التلاميذ على توزيعها. لم يستطع أحد أن يثبت شيئًا على الناظر والأستاذ شمعي، لكن الإدارة التعليمية رأت إحالتهما إلى التقاعد، بعد أن تم ضبط قطعة الحشيش مع طفل في الصف الخامس الابتدائي، بدا عليه بوضوح، في نوبات بكائه المتصلة، أنه لا يعرف شيئًا عن الموضوع.

بعد سفر أخيه الأكبر إلى ليبيا وانقطاع أخباره، هجر البلدة ولم يَعُد يسأل عن أمه التي تَسبب اسمها بعد اسمه في وجع لا يفارقه، وكانت هي، بما فعلته بعد ذلك، السببَ الأهم في هروبه. وصله الخبر من سلطان بعد شهور من موتها. نبش في قلبه عن أية مشاعر يمكنها أن تكون متبقية لها، لكنه لم يجد. ساعتها، وساعتها فقط، راوده المشهد الذي جعله يفر من البلدة، لكنه سرعان ما طرده واندفع في حياته كقطارٍ لا يرحم من يعترض طريقه.

* * *

قبل تخرُّجه بأشهُر التحق كمتدرب في مؤسسة الأهرام. كان شغله الشاغل تتبُّع أخبار حسنين هيكل وتفاصيل حياته. رآه مثلًا أعلى بكل ما استطاع تحقيقه. سيطر عليه انبهار بقدرة الرجل على استخدام معلوماته، وتحليلها، وتسخيرها لصالح القضية، العادلة بالطبع، التي يناقشها. أدهشه كيف استطاع الأستاذ حِفظ توازنه من أيام فاروق وحتى عهد السادات؟! لن ينسى المرَّة الأولى التي رأى فيها مَثله الأعلى، يوم السبت الثاني من فبراير عام ١٩٧٤، كان هيكل في طريق خروجه من الأهرام للمرَّة الأخيرة. هرول ناحيته كي يصافحه، لكنه لم يتمكن. منعه حشد كبير من الصحفيين الذين أحاطوا بهيكل ليودعوه، بعد أن أطاح به السادات من رئاسة الأهرام، ونقله إلى قصر عابدين مستشارًا لرئيس الجمهورية. استجمع قوته ورفع صوته:

- هل سنراك إلى جوار الرئيس يا أستاذ؟

وقف هيكل ملتفتًا ناحيته وقد هدأت الأصوات فجأة:

- شوفوا... من سلطة الرئيس أن يبعدني عن الأهرام، هذا حقه لا شك، وهذه صلاحياته. أما ما

الذي سأفعله بعد خروجي من هذا الباب، فلا أحد يمكنه أن يمليه عليَّ، هذا حقي وحدي وصلاحياتي وحدي، حقي وحدي وصلاحياتي وحدي.

بدا كلام هيكل قاطعًا بعد أن ألقاه بصوت واضح وبنبرة مليئة بالثقة، ورغم ارتفاع التصفيق بعصبية، لم يستطع أحد في هذه اللحظة أن يحدد ما إذا كان الأستاذ سيعمل مستشارًا للرئيس حقًّا، أم أن وظيفة «مستشار» هذه كالعادة هي لقب شرفي يُغلِّف إقالته لا أكثر.

* * *

بعد التخرج، قضى خمس سنوات في سُكنى مشتركة، مع صحفيين مبتدئين أمثاله وطلاب جامعة، وهواة تمثيل جاءوا من بلداتهم جميعًا بأحلام نجومية كبيرة، ثم انتهت بهم الحال ضمن المجاميع الصامتة غالبًا. تَمَكن أخيرًا - هو الذي لم تُغرِه مباهج القاهرة بإهدار ما يزيد عن حاجاته الأساسية - من تأجير شقة صغيرة في شارع فيصل. لم تكن الرقعة الزراعية في منطقة الأهرامات قد تآكلت تمامًا، بل لم يكن شارعَا الهرم وفيصل أكثر من ثعبانين نحيلين ممتدين بين الحقول. تآلف بسرعة مع الميكروباص، ورآه نعمة كبرى مقارَنة بأتوبيسات النقل العام. ظل صحفيًّا مغمورًا في صفحة الحوادث لعامٍ كامل، قبل أن يقتنص الفرصة ويُظهر ولاءه الاستثنائي لرئيس التحرير، حين التقاه بمصادفة، أعدَّ لها بدقة، أمام باب المصعد. أصر أن يحمل عن الرجل الحقيبة:

- هذا ليس نفاقًا، بل اعتراف علَني بأن سيادتك أستاذي ومعلمي وفخري. وهل هناك ما يمنع من أن أحمل حقيبتك؟ بل وحذاءك إن لزم الأمر... أي واللهِ حذاءك.

رمقه رئيس التحرير وقد ارتسمت على طرف شفتيه ابتسامة صغيرة:

- لا بأس... بداية تقليدية... لكنها تبشر بثعلب قدير.

صار نائبًا لرئيس التحرير، قبل أن تغلق الجريدة أبوابها، ويقف الاثنان على باب مجموعة من رجال الأعمال، الذين قرروا استثمار مبالغ ضخمة في مجال الصحافة والإعلام المرئي. كانت الوظيفة المعروضة هي رئاسة تحرير مجلة جديدة ضمن مجموعة إصدارات ما بين الدعائية والسياسية، تهدف للوقوف في وجه صحف المعارضة والتيارات الدينية. عدد لا بأس به من مجموعة المستثمرين كان من معارف رئيس التحرير، ما جعل الوظيفة أقرب إليه؛ بسبب الخدمات التي قدمها الرجل تحسبًا لمثل هذا اليوم. الأهم أن سيرته وخبرته في بلاط صاحبة الجلالة تُقدِّمانه على غيره.

جلس النائب الشاب مترقبًا موعده مع لجنة التعيينات، غير آملٍ كثيرًا في الحصول على المنصب. كانت المفاجأة حين انفتح الباب وخرج رئيس تحريره، في اللحظة التي يتأهب فيها هو للوقوف استعدادًا للدخول بحسب ما طلبت منه السكرتيرة. دامت النظرة بينهما للحظاتٍ طالت بما يكفي ليتأكد هو من أن المنصب قد صار قريبًا منه أكثر من رئيسه.

* * *

لو انطبقت السماء على الأرض عشر مرات، لَما خرج لساني من فمي بأيٍّ من أسرارك يا أستاذي ومعلمي وفخري. ثم، أهي المرَّة الأولى؟ هل وصلك شيء يقدح في إخلاصي؟ ألم أفِ بما وعدت به؟ هل أزعجتك إحداهن بعد انقضاء المهمة؟ مستحيل طبعًا؛ فعندي ما يجعلهن يرضين، ويضعن جزمة في أفواههن، ثم إن أمورك كلها كانت قانونية، بالله عليك يا أستاذي وفخري لا تهنِّي بتكرار الشك في شخصي الضعيف.

* * *

حين دخل على اللجنة، وجد جسده يتحرك منحنيًا دونما إرادة منه؛ لتكتمل الهيئة التي لازمته بعد ذلك: الانحناءة الملحوظة، الجاكيت المغلق، البنطال القصير، الحقيبة على كتفه اليسرى، والابتسامة الواسعة.

* * *

أعرف يا أستاذي أنك لست سندًا لي وحدي، بل لكل من تَربَّى على يديك في شارع الصحافة. لذلك، أثق أنك ستمنحني الفرصة، وتفسح لي الطريق كي أخطو نحو رئاسة التحرير للمرة الأولى. أَعِدك - وأنت تعرف وعودي - بأن أهم عمودٍ في الصفحة الأخيرة، ومنذ العدد الأول، سيكون باسمك ما حييت - أقصد ما حييتُ أنا، أطال الله عمر أستاذنا. أثق أنك سترتاح من مهام رئيس التحرير، ولن أوصيك طبعًا بتزكيتي عند أعضاء اللجنة؛ فأنت لها يا عزيزي، أدام الله الود وجنَّبنا شر الفضائح.

كان صوته حاسمًا وهو يأمر رئيس التحرير بالاعتذار عن الوظيفة. همس رئيس التحرير لنفسه وقد ارتسمت الابتسامة الصغيرة على طرف شفتيه:

- نضج الثعلب واكتملت المخالب.

* * *

تَفتَّق ذهنه عن أفكار كثيرة جعلت المجلة الوليدة تأخذ مكانة لا بأس بها في السوق، بعد أن رسم خارطتها بين موضوعات سياسية موجَّهة بدقة، وتحقيقات اجتماعية واقتصادية تخدم مصالح أصحاب المؤسسة، وكذلك ملحق فني مبهرج بصور لمشاهير التمثيل والطرب، وتتصدره دومًا صورة كبيرة لإحدى النجمات بلباس البحر، أو بتعبيرات وجهٍ مفعمة بدلال زائد. وأخيرًا قِسم رياضي، مسرف في اهتمامه بالحياة الشخصية للاعبي كرة القدم بالتحديد، وبعض سلوكياتهم التي تتسم بالجهل أو سوء الخُلق، قبل أن يختم المجلة ببابٍ لا يجاوز ثلاث صفحات؛ لنشر مواد أدبية من شعر وقصة، وتغطيات لبعض المؤتمرات، ثم تأتي في الصفحة الأخيرة مقالة رئيس تحريره السابق، كما وعد وبقي ملتزمًا بوعده لِما يزيد عن سنتين.

تحتل مقالته الصفحة الأولى بعد الغلاف، تعلوها صورته وهو ممسك بالقلم بين أصابع كفه التي وضعها تحت ذقنه، وهو ينظر للأسفل كما يليق بمفكر، بعد أن فشل المصور في إقناعه أن ينظر

إلى عدسة الكاميرا.

بدأ مقالاته بعنوان قنبلة أثار انتباه كل الجهات:

- هل ترقص أُم الدنيا على سُلم الحضارة؟!

في هذه المرحلة تفتقت عبقريته بأكثر مما تَوَقع هو نفسه؛ عناوين صادمة تضرب في عمق أزمات الواقع، ومحتوى يأخذ القارئ بعيدًا عن أي فهم حقيقيٍّ لمشكلاته وواقعه. كان يعرف بحكم تجربته الشخصية ما تعانيه الطبقتان الدنيا والمتوسطة، وما يشغل الشباب من طلاب الجامعة، والحالمين بمستقبل أفضل، وما يحاوله رجال الأعمال، وما يهم السلطة؛ فكان في افتتاحيته - التي أخبره أحد أصفيائه أن الرجل الكبير شخصيًّا يهتم بأن يستمع إليها - يلمس المشاكل، بل ويصف بعضها وصفًا دقيقًا، ثم يطلق لقدراته العِنان في استعراض رشاقة ألاعيبه، موحيًا للقارئ بأن المشكلات إن لم تكن قد انتهت فعلًا، فهي في طريقها للاختفاء.

في مقالته الافتتاحية الأولى تَطَرق، بما بدا كأنه جرأة غير عادية، إلى عدد من المشكلات السياسية والاجتماعية التي وصلت حد الاحتقان في الشارع، لدرجة أن من يقرأ النصف الأول من الافتتاحية، سيظن أن هذا الكاتب مصيره إلى المعتقل. هنا تتجلى مهاراته:

«نعم.. تلك حال لا ينكرها منصف، ولا بد لأولي الأمر من الانتباه إليها. لكن، هل هم غير منتبهين فعلًا؟ هل رجال الدولة، الذين لا نرى منهم سوى الملابس البراقة والوجوه المبتسمة، ولا نعلم شيئًا عن معاناتهم وآلامهم، هل هؤلاء غير عابئين حقًّا بمشكلات البسطاء؟ ألا تصل تفاصيل الوضع لمسامع الكبار شخصيًّا؟

إن ما تعاني منه مصر هو تركة ثقيلة حملها القائمون على الحكم حاليًّا بجسارة فدائي، وهم جميعًا مطالَبون برسم طريق الديمقراطية وسط هذا الحطام المرعب. على مجلسَي الشعب والشورى أن يتحملا مسؤوليتهما أيضًا في محاربة الفساد، وليجعلوا من هذه الجملة حلقًا في آذانهم: «الكفن مالوش جيوب». نعم أيها الفاسدون، وإن غدًا لناظره لقريب».

هكذا اختتم مقالته التي تَسببت في استدعائه إلى جهة أَمنية عليا. هناك، حيث الظلام يحيط بكل شيء، دار حوار طويل بينه وبين شخص لا يعرفه ولم يرَه ثانية رغم ما طرأ على علاقته بالجهات الأمنية من تطوُّر إيجابي. دافع ساعتها عن كبار المسؤولين في الدولة، لكنه أصر أن يكون الدفاع من على أرضية الخصم، وما أجمل أن يكون الدفاع مرتديًا ثوب الهجوم. تكلم كثيرًا عن وعي الناس بالمشكلات، وعن ضرورة أن تمنحهم الصحافة ووسائل الإعلام جميعها أملًا في إمكان الحل، وألا تبدو دومًا على طرف نَقيض ينكر مشكلات الواقع، كمن يطلب من الناس أن يُكذِّبوا أعينهم وآذانهم وأوجاعهم.

بذل في ذلك اليوم جهدًا لم يبذله في حياته بعد ذلك، وجاءت النتيجة مبهرة؛ فقد أصبحت المجلة تُوزَّع على المصالح الحكومية، وانهمرت عليه دعوات لم يحلم ببعضها للظهور في التلفزيون،

والحديث في برامج الإذاعة. عرف السفر إلى الخارج على طائرات كبار المسؤولين، وألِف التجول في باريس ونيويورك وطوكيو، وفي جيبه بطاقة بنكية تتيح له الشراء دونما تفكير في المبلغ المسحوب. ومع الوقت، عرف كيف يضبط إيقاع كتابته، وإن لم تأتِه تعليمات مباشرة.

يَذكر يوم حاول أحد الصحفيين الشباب أن يحمل عنه الحقيبة، بعد أن التقاه بمصادفةٍ يعرفها جيدًا أمام باب المصعد، لكنه لم يسمح لأحد في فترة الصعود بنفاقه، أو الاقتراب منه أكثر من حدود العمل. أصبح في فترة وجيزة ضيفًا دائمًا على مؤتمرات أحزاب المعارضة، بعد أن تَمكن من رسم صورة المُعارِض الحر الذي يسعى للتغيير من الداخل، ولكلٍّ طريقته، والغاية هي الوطن بلا شك. كان يُبدي نقمته على أوضاع كثيرة، يكتب في مقالاته بإسهاب عن المشكلات، ثم يتخلص بهدوء في نهاية كل مقال إلى أنها ستجد الحل قريبًا، أو ربما هي محض وَهْم، روَّج له أعداء الوطن من قوى إقليمية ودولية، يسوؤها أن تنهض دولة محورية مثل مصر.

لم يزعجه أكثر من هؤلاء الذين يسميهم «الملاعين أدعياء الوطنية»؛ فقد وصفوه بأبشع الألفاظ. ترددت في تلميحاتهم عنه كلمات: ذو الألف وجه، القواد، الذيل، صندل الست... وغيرها من الأوصاف التي أوجعته، رغم ما كان يبديه من ترفُّع عليها وسخرية من قائليها. لم يستطع محاسبتهم، أو إبلاغ الجهات عنهم؛ لأن الكثير من هؤلاء، كما تم إبلاغه، يلعب دورًا في التفريغ لا يجب التصدي له، وعليه، كوطني مخلص ومثقف كبير، أن يتحمل هذه الإهانات كحائط صدٍّ عن الوطن. ليس من وسيلةٍ سوى اللجوء إلى حيلته القديمة في الانتقام الخيالي؛ إذ طالما دبر انتقامات ممن آذوه أو سخروا منه في خياله، حين تعجزه الحيل.

لانتقاماته الخيالية دومًا أشكال كوميدية لا تخلو من طفولة، لكنها تنطوي على قسوة وعنف، لم يحاول قمعهما حين تنساب الصور والمَشاهد أمام عينيه مجسِّدةً انتقامه. بدأ الأمر معه بعد يوم طويل من العمل في المقهى، ثم ملاحقة عربات النقل على الطريق السريعة مع شلة البطيخ. حين اختلى بنفسه، مدَّد ابن العاشرة جسده فوق الكنبة التي ينام عليها. أغمض عينيه. استعاد المشهد من أوله؛ حين كان زعيم شلة البطيخ يتغنى ويتمايل مع موسيقى أغنية لمحمد رشدي، مبدلًا باسم «عدوية» اسم أمه:

أوعوا تحلوا المراكب

والله يا ناس ما راكب

ولا حاطط رجلي في الميه

إلا ومعايا ابن عليَّه

ثم يضع الولد كفيه حول فمه، ووجهه لأعلى كأنما سيرفع الآذان، محاكيًا الأغنية في نهاية المقطع:

ابن علياااااااااااااااه

رغم شعوره بالخزي، تَسلل اندهاش مُعجَب بالفكرة:

- كيف استطاع ابن الكلب أن يُركب الاسم بهذا الإتقان؟

أوقف المشهد في خياله بعد أن انتهى زعيم الشلة من الغناء، وبقوةٍ منحها لنفسه، أمسك الولد من قفاه، راقب بتلذذ تحوُّل ملامحه من الضحك إلى الرعب، ثم علقه من طرف الجلباب العلوي في مسمار ضخم جعله يبرز من الحائط لمسافة ربع متر، ليبقى جسد الولد معلقا في الفراغ. وبعد أن نزع عنه سرواله، أتى بضفدع من أولئك الذين ينقنقون على حافة المصرف، وباعد بين ساقَي الولد رغمًا عنه، ومد يده من أسفل الجلباب ببطء، وهو مُنتشٍ بالملامح المفزوعة والصراخ العذب. منح الضفدع أسنانًا حادة، ثم ترك له الحرية كاملة في التعامل مع ما بين فخذَي الولد. بعدها علَّق من ضحكوا ورددوا الأغنية من شلة البطيخ فردًا فردًا مكان زعيمهم. استيقظ في الصباح هادئًا متخلصًا إلى حد كبير من آلام طالما نهشت قلبه.

مرَّة أخرى لا ينساها حين عرف بما فعله الدكتور «تقصد إيه» بزميلتهم. أغمض عينيه وأمسك بالدكتور من ياقة الجاكيت، جعل جسده ينتفخ متحولًا إلى كرة مطاطية كبيرة، تبعثرت على اتساعها ملامح الدكتور. ارتبكت المسافة بين العينين واختلف ارتفاعهما، تمددت الشفتان إلى حدود موجعة، ظهرت الأسنان عن ابتسامة بلهاء لا تَعني شيئًا. دفعه فسقط على ظهره، ليبدأ في التأرجح يمينًا ويسارًا ببطء. قَصَّرَ ذراعيه وساقيه كي لا يُعينه شيءٌ على النهوض. بعد فترة أشبعته، تأمل خلالها عينَي الرجل الجاحظتين، وملامح وجهه المتناثرة الناضحة بالفزع والألم، مد قدمه وركل كرة «تقصد إيه» بقوة، فوق طريق مفتوحة ومفروشة بكَسْر حجارة مدببة. ركض خلفه مستمتعًا بكل ركلة، ومتتبعًا بعينَي خياله القفزات العجيبة للكرة البشرية التي تنتهي بصرخات مضحكة، بعد السقوط المتكرر الموجع فوق أسنان حجارة فقأت عينه مرة، واخترقت دبره مرة أخرى.

استعاد خياله النشاط الانتقامي ضد هؤلاء الذين تجرأوا عليه، متفننًا في تصوير مَشاهد التعذيب الفانتازية، لكنه هذه المرَّة كان ينتهي بهم إلى الموت.

الأحد ٣١ ديسمبر ٢٠١٧

الليلة نقضي سهرة رأس السنة في ڤيلا الشيخ ~~[illegible]~~ (م.ح) بالعين السخنة.
كل عام في مثل هذا اليوم تعاودني ذكرى رأس السنة التي قضيتها في باريس.. ملهى الطاحونة الحمراء. لم أنس ما حييت حين دارت رأسي وكادت تنفلت من مكانها لحظة تعرت الراقصات وظهرت صدورهن الملونة. لم أتصور أن المشهد سيصبح عاديا بعد أقل من ربع ساعة تناوبت فيه الراقصات على المسرح وهن نصف عاريات.

انتبهت بعدها للتشابه العجيب بين أجسادهن الطول، درجة النحافة، وحتى حجم الأثداء. أخذني العجب من روعة الرقصات.. الحركات الصعبة.. التوافق الدقيق مع النغمات. كانت البهجة تتطاير في المكان مثل أشعة نور انطلقت في كل اتجاه وبكل الألوان. لكن الأعجب هو ما شعرت به من تعاسة عميقة تختفي تحت الابتسامة الموحدة التي ألصقت الراقصات على وجوههن، كأنما تم توزيعها عليهن قبل الصعود إلى المسرح. راهنت نفسي - وكيف لي هذه المرة أن أعرف ما إذا كنت على حق - أنهن يتعرضن لعنف شديد وأنهن تعيسات بصورة استثنائية.

- عظيم والله... لم أعرف أن بداخلك إنسانًا حساسًا يمكنه أن يشعر بمآسي الراقصات في كباريه بباريس. الأهم أنك طفت العالم يا ابن المحظوظة، ويبدو أنك لم تترك متعة إلا ذقتها، باستثناء ما تعجز عنه طبعًا.

ارتفعت ضحكته. انتبه إلى أنه يجلس وحيدًا، وأن المحيطين به في بار الهيلتون قد لفوا وجوههم باتجاهه. مد يده بسرعة البرق إلى أذنه، كمن يضبط سماعة هاتف لاسلكية مستمرًّا في الضحك.

- نعم... نعم أسمعك.

عاد رواد المكان إلى ما يفعلون ببساطة، وهو حمِد الله على خفوت الضوء، رغم ما يسببه من حرقة في عينيه حين يقرأ.

- بص... وَحِّد الله في سرك يا أفندي... نحن جميعًا أسرى... نعم لا تبحلق فيَّ هكذا مثل المشنوق، الأسير الحقيقي لا ينتظر حربًا ليفقد حريته، بل هو من يسلمها بإرادته وبهدوء ناعم مرعب للاأحد... للاشيء. يتنازل عنها كالأبله بلا مقابل... وهل يوجد شيء يساويها أصلًا؟ بص بص... الموضوع معقد، فكل ما يحيط بنا منذ الولادة وربما من قبلها، يتربص بحريتنا، ويحاول ترويضها ووضعها في صندوق زجاجي يسمح بالنظر والحسرة والتنظير والأحلام ولا شيء آخر. نحن قوم لا نحب الحرية، بل نخشاها حد الكراهية، ونسعى لوأدها أينما ولدت. أنت مثلًا - وأنا طبعًا؛ إذ لا سبيل لاستثناء نفسي وإلا أصبحت أسيرًا وجاهلًا - تنقضي سنوات الطفولة في حشو رأسك بعادات بشر ولدتَ بينهم بالصدفة، وبتقاليدهم وأفكارهم، ثم تصرف ما بقي من عمرك في الدفاع عن هذه العادات، أو محاولًا التخلص بيأس من بعضها... انظر لأشكال التحية المختلفة في العالم، أو قل لي: لماذا ترفع قبضة يدك وتُلوح بها للأمام والوراء حين تحقق إنجازًا أو حين تريد التعبير عن العزيمة؟ لماذا لا يكون التعبير عن العزيمة هو أن تتقوس وتهز مؤخرتك يمينًا ويسارًا مثلًا؟ تعرف يا أفندي، ربما كان هناك من يفعل ذلك... من يدري؟ الأمر يبدأ هنا... نحن أسرى عادات لم نشارك في صنعها، أسرى... مِن أتفه الأشياء، وصولًا إلى ما يسعدنا ويشقينا. لكن، دعك من هذا وقل لي: أهي المرَّة الأولى لك في المولين روج؟

- لا... زرته مرة في أوائل التسعينيات... لكن... المكان يبدو مختلفًا بصورة غريبة.

- طبعًا لأنك زرته بعد أربعين عامًا من الآن.

لم يداخله أي اندهاش، رغم غرابة الجملة التي قالها مراد مختتمًا حوارهما. كانت طاولتهما أمام خشبة المسرح مباشرة. بدأ تدفق الراقصات والراقصين من جانبَي المسرح بتناغم مبهر مع الموسيقى الصاخبة الجميلة. لم تمر دقيقة حتى كانت الراقصات - وبصورة مفاجئة تمامًا - قد قمن بنزع ما يغطي صدورهن، لتتكشف أثداؤهن عارية جامحة. غزاه معجون صدمة ولذة وخجل، يشبه كثيرًا ما أصابه حين كان وحيدًا بعد أربعين عامًا على الطاولة نفسها، وعندما وجه نظره نحو مراد، وجده منتشيًا بحرية؛ يصفق ويتمايل على النغمات الصاخبة، وأحيانًا يطبل بكفيه على الطاولة وقد تدلت سيجارته السوبر من طرف فمه، ودخانها المتصاعد يصطدم بشاربه، ليتفرق بعضه باتجاه عينه نصف المغلقة اتقاء لخيط الدخان المتراقص. لف برأسه بعيدًا عن مراد. كان المكان كما رآه في التسعينيات، لكن شيئًا بدا مختلفًا في الأعلى. لم يتردد في القيام. شق طريقه إلى بلكونات الدور الثاني بسهولة كمن يركب زلاجة على الماء. رواد الدور الثاني جميعًا يرتدون ملابس لامعة موضة الخمسينيات كلها بالأبيض والأسود. التفت من الأعلى إلى المسرح. شعر بنشوة طاغية، تختلف كثيرًا عن السعادة المتحفظة التي عرفها حين زار الطاحونة الحمراء في الحقيقة. دقق بحثًا عن مراد، لكن لم يجده، شعر بفزع أسود يغزو صدره.

* * *

كاد قلبه ينخلع من مكانه وهو يشهق مستيقظًا على صوت دقات حادة. صرخ:

- لماذا تلاحقني يا مراد؟ وأين ذهبت في الحلم يا ملعون؟ كنت على حافة الشعور بأمان لم أعرفه في حياتي لولا اختفاؤك، كدتُ أتعرف على ملامحي. الطاحونة الحمراء بالذات؟! والخمسينيات؟! يا ستاااااااااااار!

- نعم...؟ أستاذ... لقد تأخرت... غريبة!

انتبه إلى أم عزة تقف عند باب الغرفة مفتوحة العينين والفم في ذهول. نهض متكاسلًا وصوت مراد يرن في أذنيه. تمتم:

- يا لك من متحاذق مغرور ابن جزمة.

وصلت عينا أم عزة إلى أقصى اتساع لهما.

- لا تشغلي بالك... من حقي أن أهذي وأشتم أحيانًا يا ستي... ليس علينا أن نتبع قواعد اللياقة طوال الوقت كالقرود المدربة... اللعنة على مراد الذي يغزوني كسرطان... خلاص يا أم عزة شوفي شغلك، وأنا سأعد القهوة.

جلس إلى طاولة الطعام وقد انتظمت أنفاسه، ورائحة البن تتصاعد من كوب زجاجي صغير أمامه.

- أصبحت خارج السيطرة... تتركني أنام حين يحلو لك... وتوقظني وقتما تشاء يا سي زفت.

داخله شعور عابث حين تذكر الراقصات جعل ابتسامته تتسع. استعاد لسانه طعم كبد البط الشهي والدجاج بالصلصة المنزلية. أحب طعم كبد البط، ومع هذا لم يحاول تجربته في أي مكان آخر؛ فقد أصبح طعم «الفواجرا» مرتبطًا بالسفر إلى باريس وحدها. هذه المرَّة رافقه مراد في حلمه، وصعدَا معًا إلى قمة اللهو في العالم:

- Molain Rouge.

قالها بصوت مرتفع، ثم جر كتلة من الأوراق الفارغة أمامه، وبدأ في الكتابة دونما تفكير كمن يهرب:

«الليلة ألتقي الشيخ (م.ح) في فيلته بالعين السخنة، يا لألاعيب الزمن وعبثه، عيِّل عر لم يجاوز الخامسة والثلاثين يتحول إلى فضيلة الشيخ المليونير؟ ثم يوجه بأفكار تافهة مكرورة ملايين البشر من قطعان العوام». رنت كلمات مراد في رأسه: «نحن أسرى.. أسرى.. أسري».

- خلاص انتهينا يا عم الفيلسوف أووفففففففف.

عاد إلى الأوراق:

«الأمر ليس ذكاء هذا الشاب فقط، بل هي إرادة أعلى منه، فتحت له ولأمثاله الأبواب على

مصاريعها، في الإعلام والجامعات ومراكز الشباب وحتى المولات... نعم... صار بإمكان هذا الشر الوغد أن يتقافز مثل برغوث في كل مكان. من أسبوعين حكى لي الجحش أنه رآه في حديقة مول كبير وقد التف حوله الناس، وأقيمت السماعات الضخمة وهو يحدثهم عن مغارة علي بابا التي يمكن لكل منا أن يدخلها ويغرف منها ما يشاء - أكد الجحش أن الشيخ استخدم حرفيًّا تعبيرات «مغارة علي بابا» و»يغرف» - بشرط أن نصفووووووووووو (هكذا يلون هذا الشاب صوته، ويمط الكلمات محركًا عضلات وجهه وحواجبه بأداءات مومس تغري زبونا كومبارس درجة ثالثة) وننظر بداخلنا مسترشدين بكلام الله. منذ اللحظات الأولى التي لاحظتُ فيها حركاته وحديثه الفج المبالغ في بساطته، وأمثلته التافهة أكثر من اللازم، راهنت نفسي بأنه سيصبح نجمًا، وقد كان أسرع رهان كسبته. أترانا نحارب الفكر المتشدد حقًّا؟ لكن كيف والدولة تفتح له مساحات في كل أجهزة الإعلام وفي المدارس والجامعات؟ أم أنها تستخدمه كمن يروض حيوانًا مفترسًا في سيرك للسيطرة على رواد السيرك جميعًا؟!

جاء هذا الولد منذ ثلاث سنوات تقريبًا إلى مكتبي... طبعًا خلَّصته بصعوبة من بين مريديه الذين تقاطروا لالتقاط الصور (كان عليَّ الانتباه ساعتها لمعجبيه من طاقم الصحفيين في المجلة لأستدل على قدراتهم العقلية). استمعت إليه صامتًا لفترة طويلة، وقد دخل في حالة خطابة لا مبرر لها، كنت في ذلك اليوم أعاني دوارًا لم يزل لصيق رأسي، من سكرة سهرة طويلة في بار شبرد الليلة السابقة. تحرك خيالي بمعزل عن أية سيطرة، وأنا أرتشف القهوة وأنظر إليه نصف مغمض. لم أكن أسمع معظم الكلام، فقط كنت ألاحظ رأس (م.ح) الأصلع تمامًا وهو يتلوى يمينًا ويسارًا وقد بدأ جسده الذي يظهر على هامش رؤيتي في الاكتساء بريش ملون دونما تجانس. ابتسمت كمن يستحسن كلامه، الذي لا يصلني منه سوى ألفاظ متقطعة. لكني انتبهت حين صَمت فجأة، واقترب بصدره من حافة المكتب محدقًا في عينيَّ، ما اضطرني لفتحهما بأكثر من قدرتي لحظتها كي تبدوان طبيعيتين، وأنا أتراجع للخلف كأنما أتقي اصطدامًا وشيكًا. أخذ حاجباه يرتفعان وينخفضان بلا نظام أو سبب، وهو يتكلم بصوت خفيض أقرب للفحيح. ميزت كلمات تتصل بالوضع في البلد، والأعداء المتربصين، ومن يحتلون مناصب لا يستحقونها، ومن يستخدمون الدين لمصالحهم الشخصية. هنا تهاوت مقاومتي؛ فانطلقت الضحكات من فمي كسيلٍ لا سبيل لإيقافه، شعرت ساعتها بالدم يتدفق إلى رأسي، وبسخونة شديدة تغزو جلد وجهي. أربك الضحك المفاجئ (م.ح)، الذي صَمت ورجع إلى الوراء ملتصقًا بظهر الكرسي، وقد احمر وجهه واتسع بؤبؤَا عينيه. وقبل أن تنتهي نوبة ضحكٍ تَرَكتُ لها الطريق واسعة، كنت قد وجدت ما أبرر به هذا الانفجار الصاخب:

- آسف... آسف يا مولانا... أنت لا تعلم ما الذي دار في سهرة الليلة الماضية عنك... سأكون صريحًا معك، وليتك تسامحني على وقاحتي... لقد كنت أنت موضوع سهرتنا.

واصلتُ النزول على سلم الضحك ببطء؛ لأمنح نفسي فرصة حَبْك قصة تولدت في لحظتها،

وهو سكن تمامًا كأي قرد وغد طاووس، وقد زال عنه الريش الملون الذي ظل بعضه ملتصقًا بذراعيه أثناء ضحكي:

- لم أتخيل أن أراك في صبيحة اليوم التالي مباشرة.

- ولكن ما المضحك في ذلك؟

- يااااااه يا مولانا... ألا ترى ذلك مضحكًا؟ جماعة تجلس حول زجاجات النبيذ والويسكي - اعذرني فقد قلت لك إني سأكون صريحًا - ثم يدور الحوار حول شيخ مثلك، وبعدها بساعات تشرفني في مكتبي، وبلا موعد مسبق... أدهشني حضورك اليوم كأنما انكشف عن بصيرتي الحجاب، هل أنا شيخ في أعماقي مثلًا؟ على أية حال سامحني وأكمل من فضلك.

لم يبدُ عليه الاقتناع، وهل يمكن لثعلب أن يقتنع بمثل هذا الكلام، لكنني كنت أثق في عهر بهلوانيته. كسبت الرهان بأنه سيمرر الموقف، ويقبل بهذا التبرير المهترئ، لينجز المهمة التي أتى من أجلها، ولا أعرفها حتى الآن. نظر في الأرض لثانيتين وهو يحرك مسبحته الفاخرة بعصبية، ثم رفع وجهه وقد عادت الابتسامة البلاستيكية إلى شفتيه، كأن شيئًا لم يحدث. كان أقل إشراقًا وأكثر صلابة. طلب مني بسرعة أن يكون له عمود أسبوعي في المجلة. أشار بوضوح إلى جهات معينة دفعته لهذا الأمر، وذكرتْ مجلتي بالاسم. قال، وقد بدأ يستعيد بعض ريشه الملون، إنه مشغول ولم يكن ليفكر في إضافة أعباء لما يفعل لولا نداء الواجب.

من يومها استمرت الاتصالات بيني وبين الشيخ (م.ح) ثم توطدت علاقتنا؛ حتى إنني كنت ضمن صفوته الذين يحضرون زيجاته السرية المتكررة من نجمات المجتمع. اليوم نسهر عنده في فيلا العين السخنة. مكان سري لم يدعُني إليه إلا بعد انقضاء سنة كاملة على بدء علاقتنا. المهم أن الشيخ كشف عن وجه الشاب أمامي في هذه الفيلا. هو عاشق للنبيذ الفرنسي الفاخر، والويسكي الأيرلندي الذي يراه أفضل من نظيره الاسكتلندي (يبدو أن لذلك علاقة بأمه الأيرلندية التي عاش معها سنوات طفولته في بلدها)».

ترك القلم وقد عاد صوت مراد يرن في أذنيه مرة أخرى:

- ينقضي نصف العمر في الترويض، وحَشو الرأس بعادات بشرٍ وُلدت بينهم بالصدفة، ثم تصرف نصف عمرك الثاني مدافعًا عن هذه العادات، أو محاولًا التخلص بيأس من بعضها.

أزاح الكرسي إلى الخلف، وقام مُرهقًا كأنما لم يستيقظ من نومه بعد.

* * *

وصل إلى العين السخنة مع غروب الشمس، كان الشيخ وزوجه الممثلة المشهورة يقفان عند باب الفيلا، وحولهما خادمتان من جنسية أسيوية. فتح (م.ح) ذراعيه على وسعهما وهو يتقدم نحوه. الشورت الطويل والتيشيرت المتهدل جعلاه أقرب إلى عمره الحقيقي:

- يا أهلًا بسعادة رئيس التحرير العظيم.

تمتم بارتباك وهو يحتضنه، ملقيًا بعينيه نحو الممثلة الشابة، التي ألصقت على وجهها ابتسامة بلاستيكية، كأنما نسختها من على وجه (م.ح). الفيلا كبيرة، وبها قباب صغيرة تحاكي قصور ألف ليلة وليلة. عند مدخل الاستقبال الواسع يرقد تمثال بالحجم الطبيعي لطاووس بألوان زاهية، تكسوه بلورات الكريستال وكِسَر الزجاج البراقة. قِطع الأثاث جميعًا تنطق بثمنها الخرافي، لكن شيئًا ما يجعلها متنافرة، كأنها حيوانات برية جُمعت في قفص كبير بلا اتفاق. انطلق (م.ح) في وصف مقتنياته النادرة بداية من المدخل الواسع:

- هذا الكرسي من أيام المماليك، هكذا أكد لي تاجر التحف، رجل تقي ولن يخدعني، ولمَ المخادعة في قطعة ثمنها ربع مليون جنيه. أسميته كرسي الظاهر بيبرس، وأحببت أن أضعه هنا في مدخل البيت لقيطًا مثل المماليك.

ارتفعت ضحكة الشيخ الشاب وحده معجبًا بالصورة التي ابتدعها للتو وهو يدعوه للدخول.

- يا سيدي أنت في متحف حقيقي، لكنه متواضع كصاحبه، ولا يعلن عن نفسه كما ينبغي له ولي. كل قطعة أثاث لها قصة. معظمها مستورد وجاء من بلده رأسًا إلى هنا. هذا الصالون الإيبسون مثلًا من فرنسا، وعمره يفوق المائة عام. طبعًا السجاد الذي تخطو عليه إيراني، صناعة يدوية، بعضه أفغاني لا أخفيك، لكنه لا يقل قيمة. آه، انظر إلى هذه اللوحة. أصلية من أعمال فنان ياباني مشهور جدًّا عندهم... اسمه... لا أذكر اسمه الآن، المهم أنه كان مهتمًّا برسم تفاصيل من طريق الحرير، ومنها ملامح عربية كما ترى، ويغلب على لوحاته اللون الأزرق، أعماله لا تقل في قيمتها المادية والفنية عن أعمال بيكاسو.

لم يتوقف عن استعراض متحفه الصغير، حتى طلبت منه زوجه، بنبرة عتاب خفيفة، أن ينتقلوا إلى الخارج. الليل قد أسدل ستائره، والسهرة مجهزة في حديقة واسعة، يفصلها عن رمال الشاطئ سور قصير ليصد الرمال، يتوسطه باب خشبي مفتوح. بدا البحر هادئًا قريبًا، تلمع فوق صفحته أنوار الفيلا، ولهب المشاعل التي تناثرت بين المقاعد والمناضد الصغيرة الملتفة في دائرة كبيرة. تناثر المدعوون على مسافات تضمن خصوصية كل مجموعة، في حين تَحَرك البعض منفردًا أو في ثنائيات باتجاه البحر. منضدة كبيرة على جانب الدائرة رُصت فوقها الأطعمة. خلفها وقف شابان بأردية وقبعات طويلة ناصعة البياض لتقديم الطعام، أو إعداده حسب الطلب. أمسك (م.ح) بيده قبل أن يختار مكان جلوسه. شده إلى داخل الفيلا متوجهًا إلى ركن بعيد في صالة الاستقبال:

- رغم أن الويسكي الأيرلندي أفضل، أعرف أنك تحب الاسكوتش المعتق؛ لذلك أحضرت لك هذه خصيصًا.

مد يده وسط زجاجات البار المفتوح، وانتشل زجاجة داكنة اللون، واضح على مقدمتها الرقم ٢٤. قال (م.ح) مباهيًا وهو يشير إلى الرقم:

- ربع قرن من التعتيق يا سيدي... لا شيء يغلو عليك يا صديقي. Single Malt على فكرة.

دارت السهرة على أنغام موسيقى خفيفة تعزفها فرقة من الشباب، مع بعض الأغنيات الأجنبية. المدعوون معظمهم من جنسيات أجنبية وعربية. الفنانة الشابة تدور بين الحضور، بمفردها أحيانًا، وممسكة بيد زوجها أحيانًا أخرى. كانت تطلق ضحكتها المجلجلة الفارغة بإيقاعات شبه منتظمة. أغراه الهواء المنعش ورائحة البحر على البقاء وحيدًا، مع أصداء لا تفارق عينيه من حلم الليلة الماضية. بعد كأسين من الويسكي المعتق، نهض متحركًا في اتجاه البحر. اقترب كثيرًا، حتى غمرت أقدامه المياه الساكنة، الممتدة لعدة أمتار بارتفاع لا يجاوز سنتيمترات قليلة. فاجأه صوت ناعم من خلفه:

- منور يا سعادة رئيس التحرير.

التفت ببطء وقد عرف صاحبة الصوت:

- أهلًا يا فنانة. سهرة جميلة.

- لكنك وحيد معظم الوقت!

- لا أعرف أغلب الموجودين... ومن أعرف لا تربطني به علاقة تسمح بالمنادمة حول كأس.

- ما رأيك في بيتنا؟

- قصر ما شاء الله!

- هل راق لك الطاووس؟!

رفع رأسه نحوها مستفهمًا، وهي أكملت كمن يستدرك:

- الطاووس... الطاووس الجرانيت المغطى بالكريستال والزجاج في مدخل الفيلا، هو أكثر تحفة تعجبني في المكان كله بصراحة.

اتسعت ابتسامتها:

- كل الناس يظنون أني أحبه بسبب ألوانه الزاهية، والمجوهرات التي يلصقها فوق ريشه السخيف. أتعرف... بعض الإشاعات قالت إنه قدم لي في الزفاف جوهرة تقدر بعشرة ملايين دولار. لم يحدث طبعًا... أساطير. لكن... أوووووففففففف.. أعرف أنني لست الأولى... ولن أكون الأخيرة بالتأكيد.

اهتزت بصورة مفاجئة فمد يده ليسندها.

- كل بنات جيلي لا يقوين على مواجهة شخص مثله؛ ساحر، يتكلم بيقين، ويعرف الكثير عن الدنيا، وعن المصير والعالم الحالي، والآخر أيضًا كما يدَّعي... ناجح... ويَعِد بالأمان... نعم... نعم يَعِد بالأمان ويمنحه... ولو مؤقتًا.

شعاع الضوء المنعكس على الزجاج جعله ينتبه للكأس في يدها. قاوم فضوله؛ خشية أن

تفضفض له بما لا تُحمد عقباه، فعلاقاته حساسة، محسوبة بميزان ذهب لا يحتمل ثرثرة زائدة. أشار بيده وهو يتحرك داعيًا إياها للعودة. قفزت إلى ذهنه فجأة صورة الراقصات نصف العاريات في الطاحونة الحمراء، وهي أطلقت ضحكتها الفارغة.

- نورت يا سعادة رئيس التحرير.

انتهت السهرة مع أشعة الفجر الأولى. نهض متثاقلًا. كانت الخمر المعتقة قد لعبت برأسه. رفض دعوات (م.ح) لقضاء الليل عنده. التفت وهو خارج ليسلم على الشيخ، الذي أصر أن يسير معه حتى السيارة. اندهش حين لم يجده. أدار رأسه يمينًا ويسارًا. ثبتت عيناه فجأة على الطاووس الحجري المواجه لباب الفيلا، وقد حل رأس (م.ح) فوق جسده، وارتفع جناحه مودعًا. في حين كانت النجمة الشابة تجلس فوقه وهي تفغر فاهها عارية الصدر دون أن يصدر عنها صوت. انفجر في الضحك تمامًا كأول مرة رأى فيها الشيخ الشاب. تمتم ليداري موقفه:

- سلام... sorry... الخمرة... والهوا... معلش... sorry... شكرًا... ليلتك سعيدة... الطاحونة الحمرا... الطاووس جميل جدًّا على فكرة... sorry... سلام سلام.

لم أفهم لمَ كان عليهم أن يستجيبوا إلى هذا الحد البعيد لتلك الهبة الغبية؟ مجموعة تافهين واهمين تمادوا في غيهم بدفع خارجي؛ مؤامرة واضحة، هذه حقيقة ما حدث، أو ما يجب أن يكون الحقيقة. كان بإمكانهم سحق الميدان، وتلقين كل الحالمين السذج على الأرض درسًا قاسيًا، يبدو فعلًا أن الرجل الكبير قد أصابته الشيخوخة ووهن الحزم منه. المهم أن الأمور تصاعدت بصورة مخيفة، لدرجة أن أحد هؤلاء المأفونين الكارهين ذكر اسمي صراحة، في برامج التوك شو التي انتشرت مثل سرطان، كنموذج لمن باعوا ضمائرهم ابن القحـ. كان عليَّ أن أفعل أي شيء لأبرر مواقفي من المخلوع، وإلا أصبحت رفوف النسيان مكاني النهائي. لكن لمَ لا؟ لمَ لا أستقيل وأستمتع بما تَبَقى لي في الحياة، الأستاذ هيكل نفسه فعل ما يشبه ذلك! لم يقبل بعرض السادات وتفرغ لكتاباته... أنا أيضًا لديَّ ما أكتب. لقد خدمت الدولة لعقود أكلت روحي، فهل يليق أن أنزوي لاعقًا جرحي كمن يعترف بجرم لم يرتكبه؟! أين ذهبت حيلك الجهنمية؟! ومن قال إن الآتي سيكون ضدك وإنك لن تستطيع التكيف؟

ظللت أهذي طوال فترة ما بعد الظهر، فقررت الذهاب إلى بار شبرد لعل ابنة الكرم تخرجني مما أنا فيه. هناك حدث ما لم أتوقعه؛ كانت الممثلة المشهورة (س.أ) تجلس على منضدتي في الزاوية. ليلتها بدت فكرة الرفقة جميلة ودافئة. لم أتردد في التوجه مباشرة إليها، فكلنا في مركب واحد تغرق، ونشعر جميعًا أننا سقطنا في المسافة بين الحلم واليقظة. تعجبت حين نهضت لترحب بي، فاردة ذراعيها لتحتضنني بقوة لا تتناسب مع علاقتنا السطحية وهي تقول:

- آاااه أنت أكثر من أحتاج رؤيته الآن... تعالَ... تعالَ أرجوك؛ فالعالم ينهار من حولي... قل شيئًا قبل أن يتوقف قلبي وتخرج روحي.

عبأت رائحة الكحول الفراغات بين كلماتها اللاهثة:

- اهدئي يا عزيزتي، لن يطول الأمر، ولن يتغير الكثير.

- كيف... كيف؟ ألا ترى... انظر من شباك البار! كثير من رجال الأعمال أصدقائنا هرَّبوا أموالهم استعدادًا للحاق بها، والجيش يبدو منحازًا للشارع... و... قل لي أرجوك... كيف؟

لم أعرف سر التماسك المفاجئ الذي شملني، قفزتُ فوق خوفي وارتباكي بمجرد أن لجأت إليَّ (س.أ)، كأنما ذكَّرتني نظراتها بمن أكون.

- دعيني أولًا ألحق بك، ليس معقولًا أن تكوني محلقة بجناحين وأنا على الأرض هكذا... الويسكي يا ابني. بصي يا ستي؛ هذه الهبة لا رأس لها، لا قيادة على الأرض ولا كيان حزبي يوجه التصرفات والمواقف، بعضهم يحمل أجندة أمريكية، والباقون رومانسيون ثوريون سيتم ابتلاعهم في اللحظة المناسبة.

كنت في الواقع أكلم نفسي بصوت مرتفع، أنظم أفكاري وأحاول السيطرة على فزع لا يقل عما أظهرته سمـ (س.أ)، وهي كانت تتلقف كلماتي بظمأ حقيقي، وتستحثني على إكمال التحليل وقد زالت من عينيها آثار الخمر.

- لكن القادم على المدى القريب سيكون أصعب؛ فالإخوان مستعدون للهجوم على السلطة، هم الفصيل المنظم الوحيد، وعطشهم للحكم تاريخي... وأكبر من قدرتهم هم أنفسهم على السيطرة، هم تمامًا كما يقول المثل الشعبي: «ما شافش لحمة...».

قاطعتني وقد ظهر عليها الهم والانتباه:

- هذا كابوسي الأعظم... تكلمت عنهم مرَّة في برنامجي، ولكن بصورة غير مباشرة، من يضمن ردود فعل هؤلاء، المهم أنهم سيقضون على مستقبلنا ويلبسوننا السواد.

- لا لا، واضح أنك لا تعرفينهم عن قرب. إنهم مثل شخصية آرثر في فيلم الناصر صلاح الدين، خادم أمين ينتظر الوثوب على السلطة باستخدام أدوات السلطة نفسها، هم ليسوا مختلفين عن النظام في شيء سوى العباءة الخارجية.

هنا انتبهت أخيرًا لما يجب عليَّ فعله.

قررنا أن نقضي الليلة في شبرد، بعد أن وصلنا صوت الهتافات في الشوارع المحيطة. لم أستسلم - طبعًا - لدعوة صريحة من (س.أ) لقضاء الليل في سريرها. قرأت قليلًا في رسائل الفيلسوف سينيكا التي كانت معي بالصدفة، قبل أن يغلبني النوم. في صباح اليوم التالي كانت (س.أ) قد رحلت. طلبت إفطارًا في الغرفة، ثم أمسكت بكتاب سينيكا مرة أخرى.

تحولت المطالب البسيطة إلى أحلام شرهة، وكشف كثير من الشباب عن نماذج سلطوية مصغرة تُقدم نفسها بديلًا للموجودين في مواقع السلطة.

المشهد أكبر من تحليلات القوى الموجودة، حتى الإخوان الذين ورطوني معهم. ظل المانشيت الشهير الذي كتبته لبانة في أفواه الانتهازيين لفترة كأنما عدُّوه كشفًا علميًّا، كتبت ساعتها: «إعادة اكتشاف الإخوان»، ووصفتهم بأنهم يعيدون تقديم أنفسهم في العهد الجديد بصورة لا علاقة لها بصورتهم التقليدية... ألم يكن ذلك صحيحًا على الأقل في البداية. أفَّاقون لا عهد لهم، تبرءوا مني بمجرد أن نجحوا في الإمساك بزمام السلطة. أعرف أن مقالاتي المؤيدة لهم ستذوب في التاريخ والبَرَكة في آفة حارتنا كما يقول نجيب محفوظ.

«الحلم الليلة كان واضحًا وحقيقيًّا بصورة مدهشة. لقد حلمت بما قمت به فعلناه أنا ومراد في واقعة «تقصد إيه». الوغد، بعد أن أسقطه مراد أرضًا وأسال دمه، لم يجرؤ في التحقيق على قول حقيقة ما حدث. جاءني مراد وأخبرني أنه هدد «تقصد إيه» بالفضيحة، إن لم يخلص صديقتنا ويعيد إليها ورقة الزواج العرفي. طلب مني ساعتها أن أساعده في تنفيذ ما تَبَقى من الخطة. أثارتني فكرة الانتقام وتحمست للمشاركة. قال لي مراد:

- يجب أن نعرف بيت ابن الواطي هذا، ثم بعدها نرسل هدية لزوجته.

كانت المرَّة الأولى التي أجرب فيها التنكر. لم أفعل الكثير لإخفاء ملامحي؛ فقط اشتريت شاربًا مستعارًا من محل للهدايا في شارع شريف، وألصقته بصورة رديئة، كما وضعت قبعة توفيق الحكيم، ونظارة شمسية بلاستيكية كبيرة الحجم بصورة لافتة، أحسب الآن أنها كانت نسائية (يجب أن أفرد مساحة في مقالاتي للتأمل في فكرة التنكر والأقنعة).

عرفت من مراد أن «تقصد إيه» كان رافضًا أن يعطيه ورقة زواجه من (ف.ن)، إلا بعد حصوله على مائة جنيه، الحقير ابن ال لكنه قبِل صاغرًا بعدما عرف أن مراد على علم بزيجاته الأخرى، وتهديده بأن يصل الموضوع إلى إدارة الجامعة، وهو الأمر الذي تراجع عنه مراد، كما أسَرَّ لي؛ كي لا يفضح البنات.

بعد أن سلمت زوجة «تقصد إيه» مظروفًا يضم صورًا ضوئية مما استطعنا الحصول عليه من عقود زواجه العرفية، نظرت في عينيها القلقتين، وأضفت جملة لم أتفق عليها مع مراد. قلت لها بصوت مفخم:

- ما خفي أعظم يا مسكينة.

آه يا ابن العبيطة.. ثم استدرت كمن يحيي الجمهور بعد انتهاء العرض المسرحي.

ما لا تعرفه يا مراد أني كنت أحب فادية (ف.ن)، وأن وساختي شيطاني جعلني أحتفظ بنسخة من عقد الزواج. كنت أتمنى أن أتذوقها أحظى بها ولو لليلة واحدة. بعد تخرجنا دبرت صدفة لألتقيها في كواليس أحد الأفلام. كانت تقوم بدور مساعد، وكنت قد تعرفت إلى المخرج بصدفة مدبَّرة أخرى قبلها بأيام. لم ترفض أن تشرب معي فنجان قهوة في جروبي بعد انتهائها من التصوير. هناك تجلت حقارتي تجلى شيطاني في مراودتها وإلقاء التهديدات المبطنة. استسلمتْ خوفًا على مستقبلها الفني الذي تخطو فيه خطواتها الأولى. هكذا قبلتْ بورقة زواج عرفي ثانية لم أزل محتفظًا بها حتى الآن خوفًا على مستقبلي. ما حدث ليلة زواجنا الموهوم كان موجعًا. ربما يأتي يوم أتمكن فيه من كتابة تلك الذكرى. أنا آسف».

السبت ٤ نوفمبر ٢٠١٧

حلمت هذه الليلة بالدكتور "تقصد إيه"!
لم أكن قد قابلته منذ تخرجي. لكنني عرفت أنه
أصبح رئيسا لإحدى محطات التليفزيون الخاصة.

لم يفوّت عليّ القدر فرصة إيذائه. خاصة بعد
أن تجاهلني ~~[illegible]~~ حين التقينا صدفة في أحد
ممرات مبنى التليفزيون. سأعترف كنت قد
تسلمت منصبي كرئيس تحرير منذ أشهر قليلة،
حين اتصل بي شخص أعرف قربه من دوائر كثيرة
في الحكومة وسألني عن "تقصد إيه"! عرفت أنه
مرشح لمنصب كبير، وأن الأمر متوقف تقريبا
على رأيي .... هكذا اختفى "تقصد إيه" تماما.

- يا للهول... أنت إذن من كان وراء اختفاء هذا الرجل من على وجه الأرض؟! أيها الغول المرعب الذي لا يعجزه شيء عن الفتك بأعدائه.

رفع عينيه إلى السقف وقد غزاه خوف عميق من اللعبة التي هو مقدم عليها. ذكَّر نفسه بسرعة أن أوراق اللعب كلها في يديه، وأن رئيسه يرقد الآن في المستشفى ضعيفًا لا يدري أحد إن كان سينجو أم لا، فداخله هدوء تخالطه لذة المخاطرة الآمنة.

«أعرف هذه الطرقات بمثل ما أعرف خارطة جروحي في تلك الفترة. نعم نعم... أزقة القرية الضيقة المتربة. البيوت الطينية المتساندة تبدو على الجانبين بعد الغروب بقليل كرسم كرتوني بهتت ألوانه الرمادية الداكنة. كان مراد يجوب معي أزقة القرية صامتًا مطأطأ الرأس. الوقت شتاء، وهذه الطريق الطويلة المجاورة للترعة هي الواصلة إلى محطة سيارات الأجرة، التي تنقل أبناء القرى إلى المركز، حيث القطارات والأتوبيسات وغيرها من وسائل الاتصال بالعالم الخارجي.

- أتعرف يا مراد... في كل مرة كنت أركب فيها هذه السيارات التي تشبه عربات نقل الموتى، متجهًا إلى المركز أو إلى سوهاج؛ لقضاء غرض أو لدخول السينما الصيفي ذات الدكك الخشبية التي تفوح منها رائحة البول والسجائر، كنت أحس روحي تحلق متخففة من حمل ثقيل... ثقيل بأكثر مما كان قلبي يحتمل ساعتها.

كنت على يقين أن مراد يسمعني جيدًا برغم صمته، ونظراته التي لم تبتعد عن الأرض. بدا المشهد كأنه يوم خروجي من القرية، بعد تسلُّم خطاب التنسيق، لكن من دون السعادة الغامرة التي ألقت بخيالي وقتها في نهرٍ أحلام ممتدٍّ حتى العاصمة. ملأ روحي بدلًا من ذلك شجن موجع، امتزجت به خفة، كادت تحملني لأُحلق فوق بيوت القرية بلا أجنحة. مرت أمام عينيَّ استمارة الرغبات: الاختيار الأول كلية هندسة البترول، والثاني كلية الآداب.

هذا كل ما تَبَقى في عينيَّ من حلم أفقت منه منتفضًا، وملء أنفي رائحة الطين الذي يُغرق أزقة القرية بعد المطر، ممزوجًا بأبخرة الحطب المحترق في الحقول، بعد أن تُخمِد الأمطار اشتعاله، فيصير عجينة سوداء تتصاعد من أطرافها خيوط دخان رفيعة شاحبة ذات رائحة نفاذة تعبئ الهواء.

- لماذا لا أقوى على استرجاع هذه الفترة القاسية في صحوي؟

- يا لغبائك، أنت تكتب بيديك : «القاسية»، فكيف تحسب استرجاعها يسيرًا؟!

* * *

رن صوت مراد في الغرفة حتى ظن أنه لم يزل أسير حلمه، وأن مراد قرر أن ينطق أخيرًا في هذا الحلم الموجع. فتح عينيه ببطء. قام بخطوات متراخية متجهًا نحو المطبخ. بعد أن صنع كوبًا من القهوة، عاد إلى منضدة الطعام محاولًا أن يتحدى عجزه.

«بعد رحيل أخي الأكبر وزواج أمي من عسران البقال، بقيت وحدي في البيت. راحة عميقة هبطت على صدري بصورة مفاجئة؛ أنا الآن وحيد مع أفكاري وأحلام المستقبل القريب، ولا شيء لأحمل همه سوى العمل في المقهى لتجميع أكبر قدر ممكن من النقود، وإعداد العدة للانتقال إلى

الجامعة أينما كانت. لم تزرني أمي في بيتنا القديم سوى مرة واحدة طوال سنتين قضيتهما وحيدًا. كانت تعرف أني رأيتها في البيت مع البقال قبل زواجهما أني غير راضٍ عن هذه الزيجة، ولعل هذا الحادث هو ما عجَّل بالزيجة. انتقلت بعدها لتعيش في بيته مع زوجه الأولى وابنتيه.

في هذه الفترة لم يَعُد أحد يناديني بـ«ابن عليَّة» في وجهي. سمعتها كثيرًا من صبية أصغر سنًّا. كنت أتجاهلهم بالتأكيد، لكن وخزًا مريرًا من نظرات أهل القرية كان يدميني بعد زواجها بعسران. حملت نظراتهم أسئلة لم ينطقوا بها قَط: لماذا اختارها عسران؟ ولماذا تمت الزيجة بسرعة؟ كيف استطاعت المَرَه أن تخطف الرجل من على زوجته وبناته؟ هل هي خلفة الصبيان... أم ماذا؟ عشرات الأسئلة كانت تبطن نبرة صوتهم، حتى وهم يردون عليَّ السلام. يوم خروجي من القرية لم أحاول توديعها، كنت كمن يفر منها، ومن جروح غائرة كانت الوالدة دون سواها السبب فيها. سامحها الله».

بدأت تباشير النهار تتسلل من النوافذ والشرفة. اتجه للحمام. بعد أن أخذ دشًّا ساخنًا بدأ تجهيز حقيبته. اليوم سيسافر لقضاء سهرة مع الشيخ في فيلته بالعين السخنة، وغالبًا سيقضي الليل هناك.

سقط على ظهره وضحكاته تعبئ فراغ الغرفة. انسابت الدموع دون أن يملك التوقف عن الضحك.

- أيها الوغد اللعين. هذه سأحتفظ بها لما بعد موتك... يكفي أن أُلوح بها كلما أردتك أن تمسح حذائي أو تأتي لترتب الأوراق على مكتبي.

ورغم الألم الذي أصاب عضلات بطنه من الضحك المتصل، بدأ مرة أخرى في قراءة الصفحات نفسها:

الجمعة ١٦ ديسمبر ٢٠١٦

ربما كان ذلك اليوم البعيد الموجع هو سبب خوفي من استمرار العلاقة مع [illegible] (ش).
لا أدري لماذا أشفقت لجنون مراد الذي طالما اتقيته؟!!! لعلها فورة مراهقة لم أستطع التعبير عنها في الوقت المناسب؟! مراد لم تبد عليه أية شماتة حين أخبرته بما حدث لي في تلك الغرفة اللعينة. العيب عليّ أولا.. فبأي عقل أحاول كسر بكارة عقلي وجسدي على يد مومس من النوع الرخيص؟!!! لم تمنحني العاهرة فرصة الاندهاش بأول لمسة لجسد أنثى.. ولم تسمح لي بتقليد القبلة السينمائية الشهيرة.. لا أدري سر احتفاظ المومس بشفتيها بعيدا عن مرمى الزبائن... أففففف

تخدش ذاكرتي نظرة السمكة التي واجهتني بها وهي
مضطجعة على الفراش وقد ظهرت كتل لحم من قميص
النوم الأحمر ذي الخامة الرخيصة. لم تتردد [illegible]
بمجرد أن جلست إلى جوارها في أن تمد يدها بلا كلفة
بين فخذيّ.. أوجعني تنهدها اليائس. لكن.....
لماذا لم أنصرف عند هذه النقطة لعلني كنت اتقيت
الضربة الكبرى ؟!!! صممت على إكمال المهمة..
كانت لحظة كالبرق الخاطف.. لم أدر ماذا حدث أو
ما الذي انفجر في رأسي وصدري معًا. كل [illegible]
ما حدث هو [illegible] أنني لم أستطع الاحتفاظ بمائي
بمجرد أن لامست ما بين فخذيها. أطلقت [illegible]
ضحكة فاحشة وهي تزيحني من فوقها. لم تزل رنة
هذه الضحكة تزورني في الكوابيس.
لم أستطع استشارة طبيب فيما لازمني بعد
ذلك من عجز لضعف ذات اليد ثم لمركزي الحساس
المرة التي عرضت نفسي

هدأت ضحكاته وهو يمسح الدموع التي أغرقت وجهه. أمسك كأس الويسكي وسكب ما فيه دفعة واحدة في جوفه متمتمًا:

- حمار... ثم تصفني أنا بالجحش... كيف تكتب شيئًا كهذا؟! أتظن أنك ستتخلص من الأزمة يومًا، أو أنك وحدك من يعاني هذه المصيبة؟! آاااااه... غبي.

- المساخر في دنيانا تفوق الوصف يا صديقي. أيمكن أن أعدك صديقًا الآن؟ المهم هل تستطيع أن تتخيل أعمار ملايين البشر تمر هكذا مثل فرقعة إصبعيَّ هذين؟ حشو الرؤوس صناعة معقدة، أعقَد من عقول الناس نفسها. الملايين يعيشون بيقين زائف وثقة لا أساس لها في أنهم يعرفون الحياة ويحسنون الاختيار، والنتيجة الواضحة التي لا يريد أحد أن يراها، هي أن ملايين ملايين البشر أصبحوا عبئًا على الحياة رغمًا عنهم، يأتون ويمرون بلا أثر كظل باهت في نهار لم تطلع شمسه. لقد تم تجهيلهم وإفقارهم، فأصبحوا موتى قبل أن يموتوا.

- لكل شيء ثمن... والإنسان قرار.. هل تظن أنهم جميعًا مساكين تطفح البراءة من عيونهم المندهشة؟ وأن حشو الرؤوس تم رغمًا عنهم حقًّا؟ هم اختاروا... قرروا أن يصبحوا آمنين كالهاموش، حين يتكورون كتلة سوداء لا تفعل سوى الاستسلام لحركة الريح. كل شخص يتخذ في حياته قرارات صغيرة، لكنها متلاحقة وكثيرة... كثيرة جدًّا... وهي ما أوصل ملايين ملايين البشر لهذه الحالة الهاموشية. أما الأشخاص الذين تركوا أثرًا في التاريخ، فقد عملوا لأجل هذا الهاموش، وواجهوه مع ذلك بوجوه سافرة، غير آبهين بلسعاته التي تنزع الجلد. الكل يملك مصيره يا صديقي، نعم أنت صديقي الآن أقولها بثقة، الكل يملك مصيره حتى الهاموش.

- تتحدث مثل الوجوديين... لكن أخاك سارتر كان متأثرًا بحربين ضاع فيهما ملايين البشر.

- وهل يضيع أقل من ذلك الآن يا مراد؟

* * *

استيقظ من دون أن يفتح عينين مثقلتين. دفع جسده بتثاقل من فوق السرير. فتح عينيه مفسحًا الطريق لدموع متلاحقة. سار حافيًا ببطء نحو الحمام. لم يشعر سوى بلسعات الماء المثلج وهي تضرب جسده العاري تحت الدش. بعد دقائق كان يجلس أمام فنجان القهوة وأوراقه الخاوية.

«ترددت كثيرًا أن أكتب ما دار بيني وبين فادية (ف.ن) في لقائنا الأخير. لعل ما كان يمنعني هو شعور بالخجل، وربما تواضع زائف أشعره للمرَّة الأولى. الخجل؟! لا أستطيع تمالك نفسي من ضحك فاجر يجتاحني الآن... أحا... خجل! ولمَ لا؟ كنت فخورًا جدًّا بما فعلت، وربما خَجِلتُ فعلًا من كتابة ذلك. لكن من قرر أن تكون مذكراتي جَلدًا مستمرًّا للذات، أو مساحة مفتوحة لشطحات مراد وتفلسفه؟ لماذا لا أُدون فرحي، وفخرًا بذاتي أظنه حقيقيًّا هذه المرَّة؟

حين دخلت فاد (ف.ن) عليَّ في صالون بيتها كانت في كامل زينتها. وجهها جميل كما أتخيله دومًا رغم ما أثقله من ماكياچ عصبي. خطواتها البطيئة منذ ظهرت حتى وصلت قرب مقعدها، والترهل الذي أصاب جنبيها فضحا فعل السنين. بدلتها المتحفظة السوداء، والبلوزة البيضاء الناصعة أسفلها، جعلتها كأنما تستعد لإلقاء نشرة الأخبار.

رفضت - ومن يلومها على ذلك - أن تمد يدها لتصافحني. بدا حين لم تجلس أنها على وشك أن تطردني. راهنت نفسي أنها صرفت الدقائق السابقة لظهورها في انتقاء كلمات جارحة، وأداء مناسب لإهانتي وطردي. ربما الفضول أو بقايا خوفٍ كانا سبب قرارها بالخروج ومواجهتي. رجوتها أن تسمعني للمرة الأخيرة. قلت لها بصوت لم أتعرف أنا نفسي على نبرته:

- لا أدري إن كان لكلامي أية أهمية الآن... لكن... أود قبل أي شيء أن أعتذر... كنت كما تظنين - وأعترف - وغْدًا حقيرًا، مارَس عليك الابتزاز... لكن ما لا تعرفين أنك أول حب في حياتي... حب حقيقي، أرقني عجزي حياله، وعكر كل شيء حولي... كل شيء. خبر زواجك السري من الدكتور «تقصد إيه» كان طعنة قاتلة. ساعتها حمَّلتك المسؤولية عن خيبتي، وعن ألمٍ أعرف أنه مزق قلبك. لا لا... أرجوك اسمعيني... هذه ليست مبررات، وكل ما أقول سيكون بلا وزن أو قيمة، إذا وضعناه في كفة ميزان أمام جرمي... فقط ليتك تعرفين أن بعض الحقارة يأتي من الوجع وقلة الحيلة.

لا أدري إن كان ما كتبته للتو هو ما قلته حرفيًّا؟ ربما نسيت شيئًا وأضفت أشياء. المهم أن ما سبق هو ما دار في صدري وحاولت التعبير عنه. مددت يدي بعدها بمظروف صغير، فيه صورتان من ورقتَي زواج عرفي؛ إحداهما عليها اسمي واسمها. قلت لها... غالبًا قلت ذلك:

- أُقسم أني لم أفتحه ولم أفكر في استخدام ما فيه يومًا... فقط كنت أخشى كأي جبان أن تلوكني الألسن... احتفظت به كذلك لأنه آخِر ما يربط بيننا. سامحيني... سامحيني.

نعم، قلت لها «سامحيني» أكثر من مرة. المدهش أني لم أشعر بجسدي أو ملامح وجهي خلال هذه الدقائق الطويلة. كانت هي قد جلست ووضعت وجهها بين كفيها، وأخذت تبكي في جلال بلا صوت. بعد أن انتهيتُ بقيت صامتًا حتى توقفت تمامًا عن البكاء، رفعتْ وجهها وقد سالت أصباغُه المتعجلة، مدتْ يدها، شدت عددًا من المناديل الورقية ومسحت وجهها كله بقوة وحسم. اختفت الأصباغ وظهر جلدها الأبيض الناصع نقيًّا، وجدت أمامي فادية التي عشقتها منذ ثلاثين سنة أو يزيد. خرج صوتها متقطعًا:

- لماذا تفعل ذلك؟ ولماذا الآن؟

مع أي سؤال تتسلط عليَّ شهوة عميقة لإخفاء حقيقة ما أشعر به أو أفكر فيه.. لكن جلال دموعها منعني. قلت لها الحقيقة بكلمات قليلة؛ أخبرتها عن زيارات مراد لأحلامي، وكيف يجلدني أحيانًا، ويُربِّت على كتفي أحيانًا أقلَّ. عندما سمعتْ اسم مراد، راعني اتساع عينيها، وبريقٌ انتفض من أعماقها وعبر وجهها مثل برق خاطف. شعرتُ أن دموعًا قد تحدرت من عينيَّ أنا أيضًا حين ناولتني منديلًا ورقيًّا. قمت مودعًا، وهي مدت يدها لتسلم. حين احتضنت يدها اقتحمني خليط مشاعر لم أعرفه في حياتي؛ سعادة وراحة وهدوء، والأهم كان شعورًا صافيًا كأنما أنا قادر الآن عما عجزت عنه من قبل... اشتهاء حرك جسدي كان قد غاب طويلًا، ولم أشعره إلا مع شمايل

(ش) لدقائق معدودة.

خرجت من بيتها وأنا أكاد أطير.

٨ فبراير ٢٠١٤

كان من أسوأ الأيام

عرفت ساعتها أنهم سيغلقون شيبرد نهائيا ... لسوء حالته الفنية والخسائر المتراكمة ؟!!!!

كان عليّ أن أجد مكانا بديلا أليفا بسرعة ...

خرا

مشاهد كثيرة علقت في عينيه وهو عائد من لقاء (ف.ن). أكان شعوره بالنشوة هو ما جعلها مبهجة، أم لأنها أيقظت ذكريات قديمة دفعت بالدماء حارَّة في عروقه؟ صورة البار العتيق في شارع عبد الخالق ثروت هي أكثر ما ألح عليه في اليوم التالي، فقرر أن يقضي سهرته هناك. صحيح أن المكان ضيق ولا يوفر خصوصية أَلِفها في بار شبرد، لكن طعمًا حريفًا رائعًا مس لسانه، بمجرد أن لمح الدرفات الخشبية العتيقة. مع أول خطوة داخل البار، هبت روائح البيرة والبراندي الشعبي. أراحه أن إضاءة المكان ليست صاخبة. تُرى هل ما تزال المزة العجيبة التي يقدمونها موجودة؟ المنضدة الوحيدة الخالية كانت في مقابل البار الخشبي، الذي يحتل الجانب الأيسر من المكان.

- بيرة ساقعة لو سمحت.

لف النادل دون أن يرد أو يبدو على وجهه أي تعبير، كأنه لم يسمع شيئًا؛ ليعود بعد دقائق بزجاجة بيرة في يده اليسرى. اتسعت ابتسامته وهو يرى كوب اللبن الرائب مرتفعًا، وبجواره طبق الفول النابت تتصاعد منه الأبخرة فوق الصينية التي حملها النادل بيمناه.

البيرة هادئة، عطوف أكثر من الويسكي ذي الأثر الحاد السريع. بعد الزجاجة الثالثة، بدأت عيناه تمران بألفة على وجوه الجالسين. المكان معبأ بدخان السجائر، وحوارات الرواد التي تتخللها ضحكات متناثرة، وطرقعات الأكواب وخبطها على المناضد الخشبية، وصوت كمان يأتي من الممر الملاصق الذي تمتد فيه مناضد البار. للسُّكْر هنا طعم خاص، دافئ وباعث للرغبة في الكلام. دارت نظراته ثانية في الوجوه المرهقة حوله، حتى توقفت مرغمة عند منضدة صغيرة لصق الحائط، يجلس إليها كهل في مثل سنه، وأمامه زجاجة براندي متوسطة وكوب صغير يجاوره كوب اللبن الرائب وصحن الفول النابت. للسُّكْر أيضًا خطراته العجيبة، فقد خُيل إليه أن هذا الجالس وحده، مرتديًا «بلو□ر» بأكمام واسعة موديل الثمانينيات، وبنطالًا من الجينز الأزرق، وحذاء رياضيًّا خفيفًا، هو عارف عبد الجواد. ثبَّت عينيه على الرجل مستمتعًا بالوهم اللذيذ، لكن شعورًا نبت بغتة وكبر بسرعة، بأن هذا الرجل ليس سوى عارف عبد الجواد حقًّا. راهن نفسه، ثم قام ببطء قاطعًا الأمتار القليلة نحو الرجل ببطء أشد. حين وقف أمامه، اتسعت عيناه وابتسامته؛ فقد كان هو بلا شك:

- عارف عبد الجواد!

رفع الرجل وجهه بهدوء:

- نعم... أهلًا وسهلًا.

- لا تعرفني... رغم أنك عارف؟

قالها وهو يجلس في الكرسي المواجه.

نزع عارف نظارته مضيقًا عينيه وهو يتأمل في وجهه:

- يااااااااه... معقول... سعادة البيه الباشا رئيس التحرير شخصيًّا... بتعليقاته السخيفة نفسها؟

ابتسم في مرارة:

- أهكذا تقوم بتعريفي؟

- وهل عندك شيء آخر؟ أنت رئيس تحرير منذ رأيتك أول مرة في الجامعة، وفي هذه المجلة تحديدًا، رغم أنها لم تكن قد ظهرت بعد... تكتب نفس الكلام الفارغ الذي تكتبه، وتطلق نفس الإفيهات الثقيلة... كانت مسألة وقت ليس إلا.

لم يوجعه كلام عارف كثيرًا، بل إن شيئًا مبهمًا مريحًا تسلل إليه.

- كما أنت... صادم وحاد... ويمكن غبي كمشرط جراح غشيم.

ضحك عارف وهو يتلفت باحثًا عن النادل:

- لاااااااا... وحياة والدك... لا تدخلني في مجازاتك العظيمة، وقل لي ماذا تشرب؟

- أنا أشرب فعلًا.

ثم أشار للنادل ليحضر زجاجته.

- كيف حالك يا عارف؟ ماذا فعل الزمن بك؟ أين أنت الآن؟ ماذا تعمل؟ وأين كريم المليجي؟ هل تراه؟ هل تتذكر مراد؟

- على مهلك يا جنرال...

قاطعه وقد اتسعت عيناه:

- كيف عرفت هذا اللقب؟!

- أيُّ لقب؟!

- «جنرال»... لا أحد يناديني به خارج أروقة المجلة!

ارتفعت ضحكة عارف:

- لا والله! فعلًا؟! لا عِلم لي طبعًا... مجرد رمية بلا رامٍ. عمومًا... أنا يا سيدي مدير علاقات عامة في شركة مستلزمات طبية صغيرة... وهذا كل ما فعله بي الزمن... بخلاف أني تزوجت من سلوى الروبي زميلتنا... هل تتذكرها؟ وأنجبت بنتين... حيزبونتين جميلتين... إحداهما تزوجت وأنجبت... أي إنني الآن جَدٌّ، وهو أمر يمكن أن تضمه لأفعال الزمن... وابنتي الثانية طالبة في كلية الحقوق، مهووسة بالدفاع عن حقوق المرأة. ما باقي الأسئلة؟

- كريم... مراد.

- آه.. كريم سافر أمريكا!

علت ضحكة عارف مرة أخرى، وهو يتراجع بظهره إلى الوراء رافعًا وجهه للسقف:

- لك أن تتخيل... كريم المليجي، الشيوعي الناصري القومي البللم بللم بللم في أمريكا... ومن

فترة طويلة... تقريبًا بعد اغتيال السادات بسنة أو سنتين.

اعتدل عارف بصورة مفاجئة:

- تعالَ نتذكر شلة الجامعة فردًا فردًا... ما قولك؟

تدفق الدم في رأسه ساخنًا، مطلِقًا آلاف الأفكار.

- نعم نعم... ابدأ أنت يا عارف.

- الدكتوره سميحة عبد الباري... لا أدري لماذا هلت على رأسي أولًا... هل تذكرها؟

- طبعًا... لم تُدرِّس لي، لكني كنت ألحظ عينيها المندهشتين دومًا.

- ومن لم يلحظهما... لقد كانت قمة في الطيبة وربما السذاجة... غالبًا بسبب تربيتها خارج مصر.

- فاكر «دكتور لو سمحت»؟

انفجرا في الضحك قبل أن يسترسل عارف:

- نعم نعم... أنا من أطلق عليه اسم «دكتور لو سمحت».

- تخيل لم أعرف السر حتى الآن؟!

- أقول لك... هذا البني آدم حصل على الدكتوراه من إحدى دول المعسكر الاشتراكي، وكان يسكن في شارعنا. شخص عجيب حتى قبل سفره للدراسة. لا يخرج إلا بكوفيته العريضة والبايب في يده... ولعلمك، لم أرَ هذا البايب مشتعلًا على الإطلاق... هل رأيته أنت؟ المهم... كان يتعامل مع الناس من طرف مناخيره... ونادرًا ما يرد السلام. مرَّة سأل عنه شخص غريب عن الحي، فأوصلته لباب شقته. حين فتح الباب لمحت للحظات عالمًا سحريًّا... لوحات متناثرة عليها لطخات ألوان عجيبة، وجيتارًا ملقى على الأرض، وأطباق طعام في كل مكان. طبعًا لم يَدْعني للدخول، ولا وجَّه لي كلمة شكر واحدة. بعد عودته حاملًا الدكتوراه، أضاف إلى البايب والكوفية شيئين: كتابًا يحمله تحت إبطه طوال الوقت، وصيحة «دكتور لو سمحت» يوجهها لكل من يناديه بـ«أستاذ» أو «بك» أو حتى «باشا». من هنا جاء الاسم.

- نعم، أتذكر مرة صرخ بها في وجه دكتوره تونسية كانت تزور القسم، وقالت له: «يا أستاذ»... لم يكن يعرف أن كلمة «أستاذ» في دول المغرب تقال لأساتذة الجامعة.

- أذكر هذه الواقعة. الأطرف من ذلك حين رافقه والدي ذات مرة إلى إحدى القرى... تقريبًا كان فرح أحد جيراننا من ذوي الأصول الريفية... ولا أدري لماذا قبِل الدعوة... ربما من باب تأكيد التحام الطبقات الذي كان يطنطن به طوال الوقت. المهم... عاد هو ووالدي من الفرح... رأيتهما بنفسي... إي والله كما أقول لك... رأيتهما بنفسي يسيران جنبًا إلى جنب في صمت، كأنهما قادمان من واجب عزاء وليس من فرح... كان والدي يغالب الضحك لدرجة جعلت وجهه يحمر

وينتفخ... والدكتور أيضًا كان وجهه محمرًّا كالبطيخة ولكن من الغضب. كنت أقف أمام باب بيتنا... أخذني والدي من ذراعي بعد أن انفصل عن الدكتور بلا سلام أو كلام، ثم انفجر في الضحك حتى وصلنا شقتنا في الدور الثالث. تخيل ما الذي حدث؟ قال والدي إنه كان يُعرِّف «دكتور لو سمحت» لأهل العريس، وأبناء البلدة من الفلاحين الذين جاءوا للترحيب بهما ببشاشة، وكلما عرَّفه على شخص قائلًا: الدكتور فلان، يرد الشخص بحفاوة صادقة: «شرفتنا يا باشمهندز».

انفجرا في الضحك حتى أغرقت الدموع وجهيهما. ارتفع صوت أم كلثوم في أنحاء البار مغلفًا الضحكات والحوارات الصاخبة التي يعج بهما المكان.

- هل تذكر مراد؟

ثبَّت عارف عينيه في زجاجة البراندي نصف الممتلئة وقد غطاهما أسى مفاجئ. هز رأسه ولم يرد.

ذاب الجليد بينهما تمامًا، واشتعلت الليلة بذكريات الجامعة، والنكات، والبيرة والبراندي حتى افترقا، وقد اتفقا على تكرار اللقاء.

لا سبيل لتفادي هذا النبض أو تلك الرعشة التي تنتشي معها روحك، فتظن أن الزمن لم يمر، وأن قلبك لم يزل على براءته الأولى حين رأيت فادية في ساحة كلية الآداب. لكني لن أكمل التذكر رغم الحلاوة التي بدأت تسيل على لساني لمجرد تخيُّل وجهها. المشكلة يا أفندي في الآن... في الحاضر الذي تراوغ لتفلت منه. تضع نفسك في قالب ضيق رغم أنك تعرف مدى اتساع قدراتك.

- كعادتك متحاذق ثقيل... دعني يا بني آدم أشرب ما تجود به الذكرى من ماء نقي، لعله يقويني ويساعدني على احتمال لحظتك الحاضرة هذه!

- لا فائدة في مجازاتك الميتة...

- اخرس ودعني في متعة التذكر. يا مراد، أنا أشعر بأن أقدامي لا تستطيع حملي من شدة النشوة. أعترف بأني أحببتها، وكم تؤلمني ابتسامتك السخيفة مثلك. أتعرف... لقد بقيت ساعة كاملة لا أقوى على الحركة، أو لا أرغب في الحركة، لحظة تخيلت أن عينها قد ابتسمت حين لمحتني. ساعة كاملة أستعيد ملامحها وابتسامتها التي تشبه شمس شتاء ناعمة وقوية، وأراقب في ذهول ما يتدفق في صدري من... من ماذا؟! طاقة... نقاء... هواء بارد منعش... فيض سعادة لا مبرر له ولا رادَّ لأمره، حالة وجدٍ كتلك التي يتغنى بها كبار المتصوفة.

- أعرف أن هذه الذكرى ستنتهي بوجع لا طاقة لك به، فدعها... اسمع... سأحكي لك نكتة.

- قل!

- لا أعرف!

انطلقت ضحكتهما معًا بإيقاع واحد.

انتبه من نومه وقد اتسعت ابتسامته، كانت المرَّة الأولى التي يختلط فيها مع مراد في الحلم. حاول، لكنه لم يستطع الفصل. كل ما سيطر عليه أن الصوتين كانا يأتيان من شخص واحد، أو أن الصوت نفسه كان يخرج من شخصين.

الاثنين ٥ يونيو ٢٠١٧ ماحدث مع (ف.ن)

ثقافة مهزومة .. تكرها لا تتسامح ولا تنسى الفضيحة .. تبقى الوصمة ملتصقة بصاحبها حتى إن كان مجنيا عليه .. لأنهم .. سيظل طوال حياته يواجه أشياء تذكره بفضيحته .. ولن يعرف إصبع من هذه التي تضغط على الجرح لتدميه مرة أخرى.

في تلك الليلة طلبت منها أن تتعرى تماما .... نعم كأي كلب جائع جلست على طرف السرير أراقبها ... جلست هي على الطرف الآخر وطلبت تخفيف الإضاءة

ثم بدأت في نزع ملابسها ...

موجع هذا الموقف ...

جدا !!!!!!!!!!

أستطيع أن أقرّ الآن بعد سنوات طويلة
وأنا هادئ جدًا - ربما لست بهذا الهدوء
الذي أدعيه - أقرّ أن هذه اللحظات
شهدت أعنف دقات عرفها قلبي طوال حياتي ..
وأن الضوء الخافت لم يكن ساترًا لجسدها
المتوهج الأبيض إلا بقدر ما كان سترًا
حقيقيا لانتفاض جسدي وغرقه في عرقه

غزير لم أدر سببه : أهو الانفعال
أم ذكرى الخيبة الأولى أم احتقار
الذات ؟؟؟!؟

لن أطيل في وصف ما حدث لأنني حين اقتربت
وحاولت لمسها .. انتفض جسدها كله
وأفلتت منه نظرة سريعة نحوي

نظرة لم تستغرق جزءا من الثانية لكنها
كانت كافية للقضاء على ~~[illegible]~~
رغبتي .... ومع هذا حاولت أن أضمها ..
كانت كقطعة ثلج .. تماديت وقبلت ظهرها وكتفها
... ساعتها عرفت أنني هالك .. بل ربما

فاقت خيبتي ما حدث ~~[illegible]~~ من قبل
تراجعت عنها تاركا الغرفة بسرعة
دونما كلمة واحدة ..

آااااي

اعتدل النائب في جلسته وهو يلملم مذكرات رئيسه الراقد في المستشفى. تمطع بتثاقل بعد أن شعر بهمٍّ انتقل إليه من الأوراق هامسًا لنفسه:

- ما أجمل هذه الذكريات أيها الماموث ذو الأنياب الطويلة، فهي قبرك الذي ستتوارى فيه لما بقي من عمرك، وسأعرف حتمًا من هي (ف.ن)، وما إذا كنت قد تزوجتها أم أجبرتَها على ما فعلت.

طافت على وجهه ابتسامته حين راودته مرَّة أخرى رغبة عميقة في كتابة مذكراته.

طارت بي الأحلام ساعتها... ما رأيك يا أفندي في تعبير «طارت الأحلام» هذا؟ ألا يشبه مجازاتك الميتة؟! لكن هذا بالضبط ما شعرت به بعد فوز لوحة الثعلب السجين بالجائزة الأولى. كنت بعدها أرى بعض ملامح ڤان جوخ حين أنظر في المرآة، وأحيانًا جوجان، لكن ڤان جوخ بالتحديد يعود دومًا ليتلبس ملامحي المنتشية... سؤال «لماذا؟» يقفز من عينيك، آاااه... لا أدري بالتحديد، لكنه الوحيد الذي يؤرقني... غالبًا حريته... نعم... حريته كانت لفترة طويلة تُطير النوم من عيني، حتى فقره وإهمال الناس له في حياته كانا لصالح حريته. أتعرف أنه الوحيد الذي استطاع أن يختار موته وأن يتأمله لأيام؟! كما أقول لك يا أفندي، ولا تقل لي إنها صدفة أن تبقى الرصاصة في جسده لأيام قبل أن يموت. لقد اختار أن يلتقي الموت وأن يتأمله. لكن أين هذا مما حدث معي؛ حين فزت بالجائزة، التف حولي مجموعة من الصحفيين وسماسرة الفن... لم أفهم تلميحاتهم، أو ما الذي يريدون مني بالضبط؟!

كان الفنان المعروف محمود السحار هو صاحب المركز الثاني كما تعلم، ويبدو أن أحدًا قد أجبره على حضور الحفل؛ فقد لمحت في عينيه ساعتها غضبًا وتعاليًا لا مثيل لهما، كما أفلتت منه نظرة احتقار وفضول نحوي... نعم... كيف يتفوق عليه هذا الصعلوك الأسمر ذو الملامح الجنوبية وهو مَن هو؟! لم أفهم ما يدور حولي؛ عرض مغرٍ من أحد السماسرة لشراء ما أرسم لمدة عشر سنوات، مقابل مبلغ كبير، على أن أسلمه عشر لوحات على الأقل كل عام... لم أفهم، فرفضت. صحافة تتجاهل لوحتي الفائزة بالجائزة الأولى وتركز على اللوحتين الفائزتين بالمركزين الثاني والثالث... لم أفهم. محاولات كثيرة شائهة بعد ذلك لاستنساخ الثعلب السجين رغم تجاهلها إعلاميًّا... لم أفهم. لذا قررت التوقف والابتعاد لعلَّني أفهم، ولم أَعُد للرسم ثانية حتى أتتني دعوة ڤان جوخ، ودخلت لوحته كما تعرف.

* * *

استيقظ وعلى وجهه ابتسامة عريضة. أعاد الحلم ذكرى اليوم الذي انقلبت فيه الجامعة رأسًا على عقب، بسبب ادعاء مراد أنه يستطيع الدخول إلى إحدى لوحات ڤان جوخ كلما أراد. قطع ساعتها الساحة بين مبنى كلية الآداب والمكتبة كالبرق؛ ليلتحم مع مراد وهو جالس في وسط مجموعة تستمع مسلوبة اللب والإرادة.

- ... لست أنا وحدي من يملك هذه الكرامة. المهم أن تكتشف لوحتك، ونفسك أولًا. أنا من محبي ڤان جوخ، وخصوصًا لوحته «الغربان وحقل القمح». نعم، الحقل الذي يغلب عليه اللون الأصفر، وينتهي بربوة تمتد لتلتقي بالسماء الزرقاء... كنت مفتونًا بها قبل أن أعرف أنها لوحتي التي تحوم حولها روحي، وأستطيع دخولها وقتما شئت وشاءت. طالما تساءلت عن الطيور السوداء الكئيبة التي تُحلق فوق الحقل، أكانت غربانًا أم نُذر موت؟ ثم ما هذه الطريق التي تمتد صاعدة

وتضج بكل الألوان؟ أهو مسارنا في الحياة بكل أشكالها وألوانها؟ رسمها هذا المجنون قبل أن يموت، كأنها رسالته الأخيرة، أو دعوة غامضة لاتباع طريقه، لكنها دعوة تخص أشخاصًا بأعينهم. المهم أن الطريق ينتهي فوق الربوة عند نقطة تشبه المهوى، وربما هذا ما دعاني للدخول... ليست الأسباب مهمة الآن، المهم أني دخلت اللوحة وتمشيت فيها... الأمر لا يحتمل المزاح أو المجاز... سأحكي لكم.

في أمستردام وقفت أمام اللوحة، قالوا إنه أطلق النار على نفسه بعد رسمها بأيام، وقالوا إنها رسالته الأخيرة، ولكن لمن؟! وما الرسالة بالتحديد؟! الآن أثق بأنني من المقصودين بها. حين وقفت أمامها لمحت حركة غريبة في عيدان القمح، كأنما الحقل كله يشير إليَّ ويدعوني. فركت عينيَّ طبعًا واستعذت بالله من شيطان جوخ، لكن شيئين حدثا معًا جعلاني أتسمر في مكاني. سمعت نعقة غراب حادة، وشممت رائحة الحقل تضرب أنفي، بعدها وجدت اللوحة تقترب وأنا ثابت في مكاني ورائحة الحقل تزداد نصاعة، في لحظة كنت أقف بين سنابل القمح بهيأتي ذاتها، ولكنْ حافي القدمين. بقيت لدقائق أحاول فهم ما جرى. كل شيء كان طبيعيًّا وهادئًا، وقلبي ينبض بصورة عادية. لم أكن متعجبًا بالقدر الذي شعرته قبل الدخول. رفعت قدمي بأول خطوة، فتسرب إلى جسدي كله ملمس التربة وعيدان القمح. الهواء كان منعشًا وفيه لسعة برد حادة لم أعتدها. تحركت وأنا أحسبني في حلم، لكن أصوات الغربان تعالت، والحركة كانت حقيقية. فركت سنبلة قمح، فتهادت الحبات على كفي. تتبعت الطريق، صعدت بلهفة عارمة، الطريق منحدرة بشدة وصعودها ليس أمرًا سهلًا بالمرة. وقفت ونظرت خلفي، كانت البلدة واضحة المعالم بأكواخها الخشبية الكبيرة، والحقل ممتدًّا بأكثر مما يبدو في الصورة يمينًا ويسارًا. صعدت... صعدت... صعدت... حتى وصلت لنهاية الطريق التي تبدو في اللوحة فتحة صغيرة تتصل بالسماء. هناك اتسعت الرؤية حتى انعقد لساني، كانت اللوحة تتكرر بحذافيرها. هرولت سعيدًا بملمس الأرض المعشبة على طول الطريق، حتى وصلت لقمة الربوة ثانيةً، فوجدت اللوحة أمامي للمرة الثالثة. هناك لمحت حذائي وجوربيَّ، هل كانا هناك كلما وصلت إلى أعلى التل كل مرة، أم أن اللوحة كانت تدعوني للخروج في هذه اللحظة؟ قعدت ولبستهم، فوجدتني في لمح البصر مرة أخرى في المتحف، واقفًا أمام اللوحة وحبات القمح في يدي.

حين صَمت، كان الجميع في حالة ذهول. استمر الصمت لما يقارب الدقيقة. ملامح مراد طوال الوقت توحي بالجدية المطلقة، والمحتشدون حوله كانوا كمن يحلم، أو يبحث عن لوحته. نهض مراد تاركًا زملاءه كأنَّ على رؤوسهم الطير.

«التمرن على الموت...

اليوم أوقفني سينيكا طويلًا، كان يتكلم عن التمرن على الموت. التمرن على الموت؟! يا له من عنوان مزعج في تناقضه وكآبته. التمرن يستدعي أولًا الجهد البدني أو النفسي، والموت هو سكون أبدي لكل شيء، وتحلُّل مفزع للجسد. كيف يريدنا هذا الفيلسوف الرواقي أن نتمرن على الموت إذن؟! في الحقيقة الموضوع أقرب للتمرن على أن نألف الفكرة ونحن أحياء، خاصة حين تبدأ الكهولة مبشرة بالشيخوخة، فكرة انتهاء هذا الوهج المَوَّار في حلوقنا وباقي أعضائنا، تلك الشهوات التي نتخيل بريقها الأخاذ أبديًّا في فترة الشباب. التمرن على الموت هو تمرن على قبول الحياة حين تأخذ في الذبول، والاستعداد لنهايتها بنفس هادئة بعيدة عن الجزع».

لم يكن يعرف إلى أين تسير الكتابة، فقرر الاستعانة ببعض فقرات من كلام سينيكا.

«ودعونا نتأمل بعض ما يقوله هذا الفيلسوف الكبير:

- قد تقول أنت: «لا شيء مزعج أكثر من فكرة انتهائنا وفنائنا - ذوباننا من الوجود، كما قد يدعوه المرء على نحو بليغ؛ لأننا لا ننتهي بضربة سريعة، بل نهترئ شيئًا فشيئًا، حيث كل يوم جديد يجتث شيئًا من قدراتنا». هل ثمة طريقة أفضل لمغادرة الحياة من انسياب المرء نحو نهايته عبر عملية التفكك التي تؤديها الطبيعة نفسها؟ ولا يعني ذلك أن مغادرتها بسرعة وعنف شيء سيئ، بل لأن التراجع التدريجي هو الأسهل.

على أي حال، إليك ما أفعله: أتخيل في نفسي أن وقت الامتحان قد اقترب، وأن اليوم الذي سوف يُعلن فيه الحكم على حياتي الماضية كلها قد أتى، وأنظر إلى نفسي وأخاطبها بهذه الكلمات: «كل ما قلته أو فعلته حتى الآن لا يُحسب شيئًا. ما أظهرته حتى الآن، إلى جانب كونه مزينًا، ذو قيمة تافهة، ولا يُعتمد عليه، كفيل لمتانة روحي. سوف أترك للموت أن يحسم النمو الذي حققته. دون قلق إذن، أستعد لليوم الذي سوف تزال فيه الحيل والأقنعة جانبًا، وأصل إلى حكمٍ على نفسي يحدد إذا ما كانت المواقف الشجاعة التي تبنيتها محسوسة فعلًا أم لغوًا وكلامًا فارغًا، وما إذا كانت التحديات الجسورة التي رميتها في وجه الحظ مجرد ادعاءات وتمثيل».

اعتدل في جلسته. صفعته بصورة مفاجئة كلمات سينيكا الأخيرة، ورغم أنه قرأ هذا الكتاب أكثر من مرة، أحس أنه يواجه هذه الفقرة للمرة الأولى، وكأنما انقطع التيار الكهربي عن ماكينة ضخمة تهدر أجزاؤها، فخفَت صوتها سريعًا حتى توقفت تمامًا. الموت، الأقنعة، المواقف الشجاعة، التحديات الجسورة. اتخذ سينيكا الكثير من تلك المواقف، حتى إنه انتهى قتيلًا على يد تلميذه نيرون، وهو رغم ذلك يشكك فيما فعل ويترك الحكم عليه لما بعد الموت! بل لا يستبعد أن تكون مواقفه والتحديات التي اختار أن يخوضها محض كلام فارغ وادعاءات!

مال بجذعه على المكتب، وضع رأسه بين يديه وقد داهمه شعور قديم بالغمِّ سيطر على صدره، لكنه انتفض وقد ارتفع صوته:

- المقارنة هي الكلام الفارغ أيها الغبي.

بدأ شعور المرارة في التراجع، فأكمل التفكير مندفعًا بالطريقة نفسها: «زمن سينيكا غير زمننا، نحن أبناء حضارة معقدة أكثر بكثير مما كانت عليه الأمور حين كتب سينيكا رسائله تلك قبل أكثر من ألفَي عام، نحن كائنات أخرى، لسنا النوع نفسه من الأحياء، قطعًا، بالله عليك أكان بمقدور مائة سينيكا أن يواجهوا ما نعيشه الآن من تعقُّد: توحش رأس المال الذي يخلق ملايين الفقراء كل لحظة، ثم يقضي عليهم كآلة قتل معدنية باردة، ثورة اتصالات وتكنولوجيا جعلت الحياة لا طعم لها بعد أن أصبحت أسرع بمائة مرة، ديكتاتوريات نازية وفاشية أفقدت النوع البشري مئات الملايين من الأرواح في حروب، وقمع، وانتشار وبائي للأمراض بسبب الطمع، تلوث تكاد معه الكرة الأرضية أن تنفجر، والمحصلة أننا كائنات أقوى، أقوى بلا شك، نعم أقوى وأقدر على التكيف، وما نفعله هو تحايل يتناسب مع تعقد لحظتنا التاريخية. أعجبته الأفكار، فقرر أن ينهي بها المقال، مختتمًا إياه بعبارة تفتق عنها ذهنه:

«أطال الله أعماركم أيها القراء الأعزاء الأحياء، ومتعكم بكل لحظة في حياتكم».

رجع بظهر الكرسي، لم يكن منتشيًا تياهًا، كما هي عادته، بعمق الجدل الذي أصبح قادرًا على الوصول إليه وقتما يشاء، وبخفة روحه التي بات واثقًا في قدرتها على أن تفجأه بما ينعش قلبه، قبل سنة واحدة من الآن، كان ثغره سيفترُّ عن ابتسامة ثقة طالما عرفت طريقها بسهولة إلى شفتيه وهو يهمس لنفسه:

- يا لها من قفشة غاية في الظرف، حكاية «أيها الأعزاء الأحياء» هذه، في سياق الحديث عن الموت، وفي سياق ما يحدث في البلد. نعم، كان لا بد من التذكير بالموت وبقيمة الحياة... لا أطفأ الله لي ذكاء.

لكن هذه المرَّة لم يلقَ في حلقه سوى مرارة غير محتملة، وشعور فادح بالهزيمة، ولم تطن في أذنيه سوى كلمات مراد الساخرة عن المجازات الميتة.

- يا سهام... تعالي خذي المقال للديسك.

هل تعرف المستحيلات الثلاثة؟ نعم... نعم: الغول والعنقاء والخل الوفي. لكل مستحيل منها حكاية خرافية طريفة. الأكثر طرافة هو أنها اختصار للإنسان. أي والله كما أقول لك. المستحيل هو الإنسان ذاته بكل دهاليز نفسه المعقدة والمدهشة حدَّ الإنكار؛ هو الغول والعنقاء والخل الوفي، جميعها ممكناته التي يعرف، وقدراته التي ينكر. المشكلة أن التاريخ يعطينا الأمثلة لكننا نعمى عنها، أو نظنها استثناءات لا يمكن القياس عليها. بذمتك يا أفندي ألم يظهر الغول عدة مرات أمام العالم كله؟ إذن كيف تفهم جنكيز خان والحجاج وهتلر وبينوشيه ونتنياهو ومئات من أمثالهم؟

العنقاء أسهل كثيرًا، فكم من كائنات تتوالد من رماد احتراقها، ليس بالضرورة أن تكون العنقاء شخصًا بعينه مثل غيلان التاريخ، هي أقرب لفكرة المجتمع. الأمة التي تحترق بأفكارها المرعبة ثم يأتي من صلبها من يكرر الأفكار نفسها، بغباء طائر ضخم الجثة قليل العقل. وربما تجسدت العنقاء في أشخاص ينتفض المظلوم فيهم ليحرق جلاده، ثم يتحول الضحية إلى جلاد.

المشكلة الحقيقية يا صديقي في الخل الوفي. ألا تراه نغمة نشاذًا بعد الغول والعنقاء؟ تخيل أنك تسمع عن المستحيلات الثلاثة للمرة الأولى، ألن يدهشك الخل الوفي بعد كائنين أسطوريين مرعبين كالغووووول والعنقاااااااااااء؟!

وها أنا مراد، ابن نهر النيل الخالد، حفيد إيزيس التي كانت خلًّا وفيًّا لحبيبها أوزيريس، أعلن بأعلى صوت أن الخل الوفي ليس مستحيلًا، وإنما رغبة الإنسان أن يجد نسخة منه هي المستحيل الثالث. ألم يقل أحد حكماء العرب الحالمين: «صديقك هو أنت إلا أنه غيرك»؟ هذه هي المشكلة: الحلم، نحن في أعماقنا نشعر بقوة ما نملك، ونريد تحقيق المستحيل، نريد الوصول إلى كائن هو أنا، فلما أعيتنا السبل، أصابنا الحزن، وحشرناه في قائمة المستحيلات من باب الإحباط. أما الصديق الوفي، المخلص، المحب، المدافع عنك بحياته أحيانًا، فموجود طبعًا.

* * *

كلما أفاق من الحلم مؤخرًا يختلط عليه الأمر؛ أهي أفكاره أم أفكار مراد تلك التي ترن في أذنيه؟ ابتسم حين تَذَكر أن مراد في الحلم إنما هو كائن من اختراعه، لا بد إذن من تسجيل تلك الأفكار، بوصفها تجليات لم يتمكن يومًا من الوصول إليها في يقظته. صحيح أن بعض الأفكار هي رَجْع صدى لما كان مراد يقوله أيام الجامعة، لكن الكثير منها يبدو جديدًا، ومربكًا حقًّا؛ إذ يقع في منطقة ملتبسة غامضة بين صوتيهما. في لحظة الاستيقاظ يكون الفرق واضحًا، لكنه سرعان ما يتلاشى في ثوانٍ قليلة. علا صوته متسائلًا:

- أنا، مراد، أنا؟

انتبهت حواسه كلها، حين وصلت إلى أنفه رائحة خوخ طازج يأتي من ناحية باب الشقة. دخلت أم عزة وهي تمسك عددًا من الأكياس. بادرها بسرعة جعلتها تنتفض:

- هذا خوخ يا أم عزة... صح؟

- نعم.. أما زلت هنا يا بك؟

اتسعت ابتسامته وهو ينهض متجهًا إليها. حمل عنها الأكياس. فتَّشت عيناه وهو يسبقها نحو المطبخ. أخرج خوخة وغسلها بتعجل. قضمها وهو مغمض العينين مستسلمًا لفعل الرائحة والطعم، وقد ملأت صورة شمايل الهواء من حوله.

الجمعة ٢٩ ديسمبر ٢٠١٧

لم أحلم بشيء.. لا مراد ولا غيره.. لكن صورة
(ش) تلح على ذهني منذ استيقظت.
اليوم جمعة، وأمام أم عزة ساعة قبل أن تصل.
لم تتوقف (ش) عن طرق أبواب ذاكرتي
وتمهيد السبل نحو ذاتي. أنا أعرف الطريق
يا حبيبتي.. نعم.. أعرفه جيدا.. وطالما مشيت
فيه مع حلم وحيد: أن أجد من يحبني مثلما
تفعلين.. كما أنا بكل أمراضي وقبحي. هل حقا
ترينني على حقيقتي؟! أنا لم أظهر للآخرين قط بدون أقنعة.. هااااه

ومن الذي يستطيع ذلك ؟! إلا أن
يكون ملاكا ... نحن ~~[illegible]~~ الأقنعة ... نظل
نضعها حتى تلتصق بجلودنا فننسى مع الوقت
ملامحنا الحقيقية .. ثم تذوب تلك الملامح ولا
يبقى سوى قناع يعلوه قناع .. يعلوه
قناع ..... آاااه

- إذا قبلت الدخول في اللعبة، فلن يمكنك الانسحاب في أية مرحلة من مراحلها. هذا هو الشرط الوحيد، إلى جانب الصدق التام طبعًا. الموضوع بسيط يا أفندي؛ ستحكي حكاية... ذكرى... بشرط أن تكون سرية وحقيقية تمامًا... مهما كانت مؤلمة أو محرجة... وطبعًا ستبقى الحكاية أو الذكرى سرًّا بيننا، أنت تعرف أساسًا أنك في حلم.

لم ينتظر مراد أن يسمع ردًّا، بل بدأ في حكايته الخاصة فورًا. أما هو فكان ملجوم اللسان غير قادر على النطق، لكنه كان يصغي باستمتاع عظيم.

- حكايتي مع أميرة علم الدين... نعم هي، المنتجة السينمائية وسيدة الأعمال المشهورة. قابلتها في حفل الجائزة بعد أن فازت لوحة «الثعلب السجين» بالجائزة. كانت في هذا الوقت شابة جميلة... تعرف كيف تبرز مفاتنها. المهم أنها تأملت في العبد لله بعد أن تسلمت الجائزة، ثم قررت أن تأخذني... نعم نعم... «تأخذني» هكذا كما تأخذ زوجًا من الأحذية أعجبك بعد أن تأملتَه قليلًا في واجهة محل. بص يا أفندي... هذا النوع من البشر ليس لديه سبب واضح للتحكم في شهواته، أو تأجيلها، أو حتى تهذيبها وإلباسها ثوبًا مقبولًا لدى الناس... وما الذي يجبرهم على ذلك؟ طز في الناس... حتى إنْ قادتهم رغباتهم لارتكاب جريمة... فسيرتكبونها فورًا لمجرد أنهم يستطيعون، وطز في القانون... نعم لا تبرق هكذا... القانون كما يفهمه هؤلاء كائن رخو داجن مخلوق لحمايتهم ليس إلا.

المهم أنني كنت في الإسكندرية... وحيدًا ومنتفخًا بالجائزة... شعرت أنني أطفو فوق موجات البحر، أتراقص معها بنشوة لم أشعرها من قبل... ذهبت معها... وقضينا ليلة من ألف ليلة... كانت شهوانية إلى أقصى حد... وتلقائية... لا تتردد في فعل أي شيء يرد على خيالها أو يمنحها المتعة. بعد هذه الليلة هربت منها... نعم نعم... بص... أنا كنت مرتبطًا بغيداء، أنت تعرف... لم أخبرها طبعًا بقصة أميرة... بل لم أخبر أي شخص على الإطلاق... هل أنت مجنون؟! لكني لم أقبل التمادي في علاقتي بأميرة... أيوه يا سيدي... هي أميرة علم الدين إياها.

فتح عينيه وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. اعتدل قليلًا في السرير محاولًا تذكُّر تفاصيل الحلم.

- يا لك من عفريت يا مراد... أميرة علم الدين حتة واحدة... أعرف أنك فعلتها.

لم يدرِ كيف عرف تفاصيل علاقة مراد بأميرة علم الدين، رغم أنه لم يتذكر الكثير من مشاهد الحلم التي تراءت كخيالات شاحبة؛ بعضها لمراد وهو يتسلم الجائزة، وبعضها وهو غارق في لذته مع أميرة. راودته ذكرى مفاجئة حين كانت أميرة علم الدين نفسها تفتتح معملًا أهدته لإحدى كليات الجامعة. سحبه مراد لحضور الافتتاح. يتذكر الآن بوضوح تعبيرات وجه مراد المنتشية بصورة مكتومة. كان يقف في نهاية القاعة التي يجري فيها الاحتفال، مستندًا إلى الباب بكتفه. يتذكر جيدًا،

ويفهم الآن، ابتسامته الواسعة حين حنى رأسه ناظرًا إلى عقب السيجارة السوبر الذي ألقاه على الأرض وهو يدهسه بطرف حذائه.

تمتم وهو ينهض من السرير:

- ولكن كيف سأكمل اللعبة يا مراد؟ كيف أحكي لك بدوري قصة من خزينة ذكرياتي؟ ومن سيكون الحَكم بيننا؟

جلس أمام فنجان القهوة وإلى جواره كومة من ورق الدشت. قرر أن تكون مذكراته هي مساحة الرد على مراد.

«رغم أن قصتك تفوح منها روائح «الفتاكة» والمباهاة، لكنني سأتفوق هذه المرة يا مراد. سأحكي لك عن شمايل التي لا يعرف أحد قصتها معي، ولم يتحرك بها لساني منذ حدثت. لا أدري أمن باب الخجل، أم الحرص، أم الرغبة في أن تبقى شمايل نبع إشعاعٍ صافٍ في روحي؟ المهم أنني يومًا سأحكي طبقًا لقواعد اللعبة التي اقترحتها يا سي مراد.. بمنتهى الصدق».

لا أريد أن أكتب عنك، وأكاد أحترق لأكتب عنك. شمايل... كيف تشع من اسمك وحده هذه الطاقة القاتلة للروح... المحيية لها؟ قبلكِ لم يكن لي أمل في علاقات نسائية... ثم التقيتك، وبلا جهد تمكنت أن أتعرى أمامك... تركت جسدي ليديك تنزعان عنه ستره وعجزه، وأسلمت روحي لصوتك ينفض عنها الأوهام والأوجاع. رائحة الخوخ التي تعشقينها كانت تفوح من أشيائك الصغيرة دومًا ومن الذكرى الآن.

قررت بعد سهرة طويلة في البار مع عارف عبد الجواد أن أسعى إليك، سأجدك مهما كلف الأمر. أعرف أنك في باريس، سأزرع الطرقات بخطواتي حتى ألمحك، وغالبًا سأطلعك على هذه الصفحات.

* * *

«لقد بدأنا منذ لحظات الهبوط التدريجي نحو مطار شارل ديجول، نرجو من السادة الركاب العودة إلى أماكنهم، وربط أحزمة المقاعد».

لم يكن قد تحرك أو أزاح حزام المقعد الذي يوجع بطنه منذ أقلعت الطائرة. عادته أيضًا ألا يأكل أو يشرب أيًّا كان طول الرحلة حتى لا يضطر لاستخدام الحمام. انقضت ساعات الرحلة في خيالات حول اللقاء المرتقَب. لم يرها منذ سنوات، صَمَتَ طويلًا بعد لقائهما الأخير في بيروت، الذي انتهى بوعد التواصل، لكنه لم يفعل. حين هاتفته كانت ردوده حذِرة، لم يرد فقدانها، ولم يقوَ على الاقتراب؛ فاستخدم كل مهاراته ليستبقيها، ويحرمها القدرة على اتخاذ قرارٍ بالفراق، حتى يتمكن من حسم موقفه، لكنها لم تحتمل هذا الوضع كثيرًا، واختفت تمامًا منذ خمس سنوات أو يزيد.

دونما انتظار للنهار الوشيك، قرر أن يبدأ الخطوة الأولى فور وصوله الفندق في وسط باريس. طلب من موظف الاستقبال تجهيز قائمة تضم أرقام هواتف الصحف والمجلات التي تهتم بشؤون الشرق الأوسط والأزياء وعناوينها، ثم استسلم للنوم بعد كأس ويسكي جلبه من المطار. في السفر يتحرك بصورة مختلفة تمامًا عن روتينه اليومي؛ يستيقظ قبل انتهاء موعد الإفطار بقليل، يلبس نظارته الشمسية، ويعتمر «كاسكيته» فوق بدلة التدريب «الترييننج» التي ينام بها، ثم يضع قدميه حافيتين في حذاء قماشي خفيف، وبعدها يتحرك نحو المطعم حتى قبل أن يغسل وجهه. إفطاره في الرحلات عادة ما يكون ثقيلًا: بيض مقلي، لحم مقدد، جبن، خضراوات، علبة زبادي بالفواكه وقهوة؛ فعادة ما تستغرق مهامه وقتًا طويلًا قبل أن يتمكن من تناول الطعام مرة أخرى، وهذه المرة بالذات لا يريد التفكير في الأكل، ولا أن يصيبه الإعياء حتى يجد شمايل.

اتصل هاتفيًّا في اليوم الأول بمجلتين، واضطر لزيارة ثلاث جرائد لم يستطع أن يتواصل معها عبر الهاتف قبل أن يقرصه الجوع ويشعر بقرب انهيار جسده؛ فعاد إلى الفندق، وقد استقر بداخله اطمئنان عميق لا يعلم سره، فقط كان يشعر أنها قريبة. في اليوم التالي كانت وجهته بعد الإفطار

مجلة «هي» Elle المختصة بالأزياء. أمام مكتب الاستعلامات سأل بفرنسية بائسة عنها مكررًا اسم شمايل. هز الموظف رأسه بالنفي. قبل أن يلتفت مغادرًا المكان، سمع صوتًا يحادثه بالعربية:

- تبحث عن شمايل الناصري... صباح الخير أولًا.

التفت وقد اتسعت عيناه؛ فقد انتبه للمرة الأولى أنه لا يعرف اسمها بالكامل، فقط شمايل. رد بسرعة:

- نعم نعم هي.

- إنها تعمل حاليًّا في مجلة ماري كلير.

شكر محدثه مندفعًا نحو الباب.

في مجلة ماري كلير قاده أحد أفراد الأمن إلى غرفة انتظار خالية إلا من بعض الكراسي المتناثرة بلا نظام، وماكينة صنع القهوة والشاي. جلس بعينين لا ترمشان، ونظرةٍ مثبتة على الباب الزجاجي. لم يمر وقت طويل حتى رآها آتية من نهاية الممر المؤدي للغرفة. كانت تتحرك بصورة طبيعية هادئة. دخلت وهي ترفع يدها ببساطة وطبيعية:

- أهلًا أهلًا يا أستاذ، ما هذه المفاجأة.

ألجمت لسانه نبرتها المحايدة، والابتسامة الباهتة التي التصقت بشفتيها. تبعثرت نظرته في وجهها وهو يمد يده بحركة آلية. كان يستجمع شتاته مستجيرًا بقدرته على فهم البشر وإدارة الأزمات، لكنه عجز بصورة كاملة. استمرت هي في الحديث وهي تدعوه بيدها للجلوس:

- يا للمفاجأة! أهي الصدفة، أم أن عملًا ما أتى بك إلى ماري كلير.

لم يكن قد تماسك بعدُ، فقرر اللجوء للحقيقة:

- جئت بحثًا عنك.

بالكاد تَعَرف على صوتٍ خرج متحشرجًا من فمه، وهي لمعت عيناها ببريق كان يتوقعه منذ اللحظة الأولى.

- شيء غريب... أعطيتك عنواني القديم منذ سنوات، ولم أتحرك إلى باريس إلا من سنتين فقط.

شد نفَسًا عميقًا طويلًا وقد شعر ببعض تماسك:

- لم أستطع... كنت خائفًا، أو عاجزًا.

ضربته الكلمة الأخيرة في عمق لم يتوقعه أو يقصد إليه، لكنه أكمل:

- تمنيت أن تبعثي بشيء ما يدفعني بعيدًا عن حيرتي.

انتصب ظهرها وهي تغالب خطوط الألم التي غزت وجهها فجأة:

- أنت ياللي ناطر النجدة... مني أنا؟! عم تمزح... أنت بتعرف مأساتي بتفاصيلها من الليلة

الأولى، وأنا صدقت وعودك ياللي حسيتن بنظراتك ولمساتك... العمى! وين كنت، ليش ما خبرتني إذا عندك مشكلة كبيره ها القد؟

ظهر فجأة كل ما حاولتْ إخفاءه، كانت كمن يهذي، قبل أن تبدأ الدموع في التساقط بغزارة على وجنتيها، وهو مبلل بعجزه. لم يتوقع انهيارها بهذه السرعة. شعر بتماسك وهدوء كمن عرف طريقه:

- هل تقبلين دعوتي على العشاء الليلة؟

* * *

قبل عقدٍ من الزمن كان لقاؤهما في بيروت، لا حاجز بينهما سوى خوفه من عجز قديم. لم يكن يعرف ما إذا كان سيتعرض لاختبار جديد في هذه الليلة. قَبِل دعوتها على العشاء في بيتها. شقة صغيرة في منطقة الروشة من غرفتين وصالة استقبال مهندمة بدقة، ترى شرفتها شريطًا صغيرًا من البحر. كانت وحيدة إلا من دولاب ذكريات أخبرته أنها لم تفتحه منذ عقود. في تلك الليلة التي مرت بهدوء وسلام لم يتخيلهما، باحت له بتفاصيل علاقتها الوحيدة مع زوجها السابق، الذي تُفضل تسميته بـ«أبو الأولاد». تناولا العشاء، وهي شربت الكثير من النبيذ، قبل أن تقوم فجأة متوجهة إلى دولاب الذكريات. فتحته بتصميم ظهَر في حدة حركتها. مدت يدها، انتقت شريط فيديو قديمًا.

- أرجو أن يكون ما زال صالحًا للمشاهدة.

- المهم أن يكون الجهاز نفسه صالحًا!

ارتفعت ضحكاتهما. أصدر جهاز الفيديو حشرجة غريبة بعد أن ابتلع الشريط، لكنه بدأ العمل. أمسكت بالريموت وضغطت زر التقديم:

- أريد أن ترى مشهدًا بعينه.

اعتدل في جلسته، قبل أن يبدأ المشهد المقصود: شمايل في أبهى صورها وعريسها يرقصان على أنغام موسيقى هادئة. هي تتمايل وترسل شعرها المنساب يمينًا ويسارًا وقد أغمضت عينيها، كمن يلقي نظرة متمعنة على أحلام الطفولة والصبا التي اقترب موعد تحققها. العريس يمسك بيديها ويتحرك بآلية متخشبة، حين دارت الكاميرا لتظهر وجهه - وقبل أن يشق شفتيه بابتسامة مفتعلة حين واجهته العدسة - تجلت ملامح معدنية ونظرة عين سمكة باردة تراقب ما تفعله هي بنفاد صبر. نطقت ملامحه وحركات جسده بسؤالين مجدولين معًا: ما هذه التعبيرات البلهاء التي تبدو على وجهها؟ متى ينتهي هذا الحفل؟

ضغطت شمايل بعصبية على الريموت ليتوقف العرض، التفتت بحدة نحوه:

- كيف تقرأ هذا المشهد... هه؟

أكملت دونما انتظار لإجابة:

- كيف لإنسان أن تعميه الأحلام إلى هذا الحد؟ لماذا لم أفتح عيني ساعتها لألمح وجهه السابح في ملكوت آخر لا يفهم شيئًا عن رومانسيتي الساذجة، بل قل البلهاء؟ العلامات كانت كثيرة قبل ذلك، لكن ملامحه الباردة التي تراها هنا هي أكثر ما كان يذبحني كلما واجهتها ببعض مشاعري أو ذكرياتي أو أحلامي.

حاول احتضان كفها، لكنها سحبتها بسرعة:

- ثمن اكتشافي المتأخر للشخص الذي انهارت بفضله كل أحلامي، لا يسمح لي بلعبة الحب مرة أخرى... لست أنا من يقرر، إنها ببساطة عقدي النفسية، ونصيحتي أن تنجو بنفسك.

جاهد ليبتسم في محاولة لاحتوائها:

- مهلًا حبيبتي... لا تهدري ما تَبَقى من عمر في البكاء على ما فات منه.

صرخت وهي تقف منتفضة:

- لا تستخدم معي كليشيهات تافهة... افهم يا أستاذ... لقد حضر فزعي القديم كله كجني شرير منذ رأيتك... لأني شعرت منذ اللحظة الأولى أني... أني... أحبك.

فاقت دهشته ساعتها جميع خبراته وقدرته على التوقع، فارتفع حاجباه وتدلت شفته السفلى ببلاهة صادقة. كان يعرف أنه يحبها وأنها معجبة به، لكن كيف لشخصية مثل شمايل أن تحبه بكل صدقها الساطع، وبكل زيفه الذي يثق أنها تشعره؟

فتش في داخله فلم يجد حيلة سوى التصرف بتلقائية لم يعتدها. جذبها بقوة، ضمها حتى كادت تذوب في حضنه، ثم قبلها بكل شوقه لمعنى الصدق. لم يشعر بعجز، وهي استسلمت.

* * *

- لماذا جئت؟

أطلقت السؤال دونما تحية، وقبل أن تجلس. لم يدرِ بماذا يجيب، أيخبرها بولهه ويطلعها على صفحة المذكرات؟ كان قد اختار مطعمًا في قلب باريس، في شارع صغير خلف الشانزليزيه. كل شيء فيه يبدو منتميًا للنصف الأول من القرن الماضي، تغلفه إضاءة هادئة وأغاني إيديث بياف. لم يكن كل ذلك متسقًا مع سؤالها الحاد المباغت. فكر أن يعرض عليها الزواج، فأصابت قلبه رعدة انتفض على إثرها جسده، وهي جفلت واتسعت عيناها:

- ماذا بك؟

فتحت دهشتها الصادقة أمامه باب مناورة لم يستطع إلا أن يدخله. طأطأ ببطء، ثم وضع وجهه بين كفيه. ازدادت دهشتها، واتسع صمتها. كان صوتها رقيقًا وهي تعيد السؤال:

- ماذا بك... حدِّثني... حدثني!

لم يغير وضعه وهو يتكلم، فخرج صوته من بين أصابعه عميقًا كأنما يخرج من كهف:

- جئت أبحث عنك لأضمك لعلنا نتجاوز هزائمنا.

منحته نبرة الصوت غير المتوقعة، وضخامة الكلمات التي انسابت من بين شفتيه، متسعًا على خشبة المسرح التي ارتسمت للتو أمام عينيه، فأكمل وهو في الوضع ذاته:

- أعرف كم كان نزيفك مريرًا... وأعرف كم كان غيابي قاسيًا موجعًا وغير مبرر... وأعرف قبل كل شيء أنك منية روحي.

مرت دقيقة صمت منحته المزيد من الأفكار، لكن صوت نحيبها أجبره على أن يرفع رأسه نحوها. كانت صادقة كشلال بري جرف بقوة مشهده الممتع، فهو يحبها رغم مهاراته التي تعمل من تلقاء نفسها عند الحاجة، يحبها بكل ما تَبَقى له من نقاء. أمسك بذراعها وجذبها نحوه، فمالت بجذعها، واستكانت في حضنه وهي تلف ذراعيها حوله.

في بيتها الباريسي ذاب فيها، وهي احتوته بمزيج من أمومة عميقة عطشى، وعشق يكاد يفتك بجسدها. لم يخذله جسده، فأعادا الكرة وهو غير مصدق. مزقت لمساتها وقبلاتها والأصوات التي صدرت عنها ذكرياته المخيفة عن عجزه، وخلقت أنفاسها عطرًا لم يذق عبيرًا يشبهه من قبل، فكان كمن يعود للحياة بعد موتٍ طال لعقود. لمس كل جزء من جسدها بهدوء، وهو يقبله مستنشقًا رائحته. كانت تتأوه وقد أغمضت عينيها، وهي تحس بجلدها يزهر وورودًا وعشبًا فائق الاخضرار مع كل لمسة من شفتيه. شعر بأمان واكتمال، فحلقت روحه في سعادة لم يعرف لها نظيرًا. سطع في قلبه شعاع غريب من نور صاف، كأنما ألقيت عليه تعويذة أيقظت كل ما ظن أنه قد مات. ضمها بقوة بعد أن هدأت حركتهما. مر بكفه على ظهرها وهو يهمس:

- لماذا لا نتزوج؟

جمدت حركتها فجأة، لكنها لم ترفع وجهها نحوه:

- ما رأيك في كوب شاي ساخن في ليل باريس البارد؟

أصابه ندم مفاجئ وهادر، فأغمض عينيه، وهي سحبت نفسها ببطء. ارتدت قميصه متوجهة نحو سخان الماء الكهربائي. قرر أن يمشي الطريق إلى نهايتها:

- لم تجيبي!

- أنت أيضًا لم تُجب، أتريد شايًا معي، أم تفضل كأسًا من الويسكي؟!

احتمى سريعًا بشعور السعادة والانتصار الذي لم يزل يعبئ روحه، فتابعها مفتونًا بجسدها الممشوق. كان خائر القوى لا يقوى على التفكير في شيء، وهي قررت أنه سيشرب الشاي.

- أتعرف أنك لم تعلق على حفل زواجي إلى الآن؟

- أين هو حاليًّا؟

- في السويد يحارب الاحتلال على صفحات الفيس بوك وتويتر، ويعمل بالتجارة، يتاجر في أي

شيء وكل شيء، كما كان دومًا.

- والأولاد؟

- تفرقوا.. بنت مع أبيها، وأخرى تعمل في الخليج، والولد هاجر إلى أستراليا.

وضعتْ أكواب الشاي على منضدة أمام السرير، وجلست على أريكة تقابله.

أخذ رشفة من الشاي وهو يغمغم بصوت لم يظن أنها ستسمعه:

- الوصف الوحيد لهذا الكائن أنه ابن ستين جزمة في بعض.

صدحت ضحكتها وهي تستلقي على ظهرها. ظلت تضحك وهي تحاول بصورة متقطعة أن تتكلم:

- في بعض... ستين... مستحيل... تخيل المنظر!

كعادتها حررته.. قضى ضحكها على غصة كانت قد بدأت تتملكه بعد أن تجاهلت عرضه بالزواج، وللمرة الأولى انتبه للكوميديا الكامنة في التعبير الذي يستخدمه كثيرًا:

- صحيح... ستين جزمة في بعض صعب قوي!

اتسعت ابتسامته، ثم بدأ يقهقه بصوت لم يسمعه هو نفسه منذ أيام الجامعة. ترك نفسه بلا حسابات حتى أغرقت وجهه الدموع.

لا تخَف... أشعِل هذا الفتيل الصغير، ودعْ نور مصباح الكيروسين يتسلل شاحبًا دافئًا إلى روحك. لا تخَف... فلن يقتلك الشجن، بل لعله يحيي أشياء تحتضر أو تكاد في قلبك. نعم... اجلس على أريكة أمك... تأمل «الطبلية» التي تغطيها صفحتا الجريدة، صحنَي الجبن القديم بالزيت والطماطم، والعسل الأسود وعلى وجهه نقاط متناثرة من الطحينة، وكِسر البتَّاو. كم ضمتك أنت وأخيك لتقيكما بجسدها شر رصاصات الهواء البارد المتسللة من شيش الشباك المكسور. كانت تضحك وتمرر يدها على ظهرك وتحكي عن زمن آتٍ ستكونان فيه من البكوات. لا تخَف... تلك اللمسة الحانية هي شفاؤك من داء البرد المزمن الذي التصق بعظامك وقلبك فجعله يرتجف كلما لمح تهديدًا، كأنه وكأنك تفقدان هذا الحضن مرة بعد مرة بعد مرة. هي امرأة مسكينة... أنت تعرف... أوَلا تعرف؟ فقط كنت تخشى أن تمنحها صك براءة يزيد من حمولتك. إدانتها والهروب كانا طريقك المثلى. الفزع من أن تصعقك نظرة عتاب واهنة في عينيها أشعل مخاوف الانهيار وفقدان كل شيء. اقترِب ولا تخف؛ فقد ماتت غير حاقدة عليك... بل لعلها دعت لك ولأخيك في سرها قبل أن تفارق.

سنذهب اليوم إلى خمارة نبيل في حلوان، لا تتأخر.

- ما أعجب الاسم!

- لا تتأخر.

مراد ينتظرني أمام محطة المترو في حلوان. قطعنا الحديقة المقابلة للمحطة. انحرفنا يمينًا لنجد بوابة البار أمامنا. لم يكن اسمه بار نبيل، تقول اليافطة كافتيريا زهرة حلوان، لكن مراد أضاف بَصمته كالمعتاد. دفع الباب وأنا خلفه مباشرة. الفرق بين ما قبل الباب وما بعده مهول، كأنك انتقلت من عالم رتيب كل ما فيه يمكن توقعه، إلى عالم آخر مختلف بصورة مذهلة؛ عالم يشبه الأفلام القديمة التي تبدو الأشياء فيها مسالمة رغم غموضها، وقريبة جدًّا لقلبك وإن ضمت الشرير صاحب الملامح الحادة المتحفزة.

باب البار غائر في مبنى عتيق يقع بعد نهاية الرصيف بحوالي المترين، ويبدو بواجهته المظلمة كأنما جاء للتو عبر آلة زمن من حقبة تاريخية أخرى. تغطي البار سحابة من الدخان، وصوت أم كلثوم يأتي من بعيد على استحياء من بين ضجيج أصوات ضاحكة، أو منفعلة في حوار جاد ساخن، رغم ما يموج فيه من علامات سُكْر واضح في بعض الكلمات الممطوطة، أو الوقفات المفاجئة. المهم أن حالة من الصخب كانت تفيض في البار الممتد بالطول كأنه عربة قطار. أصبح الشارع والعالم كله من الماضي.

- مساء الفل يا نبيل.

- مراد باشا.

- فين وجيه؟

- بيعبي القزايز وجاي.

ارتفع صوت من آخر البار مناديًا على مراد، تلته أصوات تهليل وترحيب من كل الأرجاء. تَحَرك أحد الجالسين ببطء مَن أفرط في الشرب. توجه نحو مراد الذي استقبله فاتحًا ذراعيه وهو يردد:

- السنة السودا ابتدت.. يا أهلًا يا عم صبحي.

ارتفعت الضحكات بسبب تعليق مراد. وصل صبحي إلى مراد ومد يديه ممسكًا وجهه. قبَّله أربع مرات على خديه، ثم بدأ يمر على كل المناضد؛ يمد يده للجالس، يشده ليقف، ثم يقبله أربع قبلات. كان صبحي يفعل ذلك بمنتهى الجدية والحنان. ينظر أحيانًا في وجه الشخص لثوانٍ بعد الانتهاء من قبلاته الأربع، ثم يعيد تقبيله مرة أخرى بالحرارة نفسها. صاحبت القبلات موجاتٌ من ضحكٍ لا يسمعه صبحي أو لا يعنيه. توجه نحو نبيل الذي رفع وجهه للسماء صارخًا:

- عليَّ الطلاق ورايا شغل يا عم صبحي.

لكن صبحي، المقتنع تمامًا بأهمية ما يفعل، لف بمنتهى الهدوء من وراء البار مقتنصًا كف نبيل، الذي لم يستطع تفادي القبلات التي انهمرت على وجهه.

- ما سر عم صبحي هذا؟

- لا أحد يعرف. شيء ما يستفزه بعد أن يصل إلى درجة معينة من السُّكْر، فيقوم كما ترى ليقبل كل من في البار. وربما فعلها أكثر من مرة في الليلة الواحدة. يفعل ذلك من عشر سنوات على الأقل. أتعرف؟ أنا لا أتخيل هذا البار من دون قبلات عم صبحي!

لم يكن في البار منضدة خاوية، لكن مكانًا اتسع لنا بسرعة؛ لنصبح في حضرة ثلاثة أشخاص لا أعرفهم. انهمك مراد في السلام عليهم والسؤال عن صحتهم. عرفت أنهم فنانون تشكيليون، وسرعان ما انفتح الحوار حول آخر معرض أقامه فنان كبير قدم فيه لوحات تنتمي لإحدى مدارس الفن المعاصر، وعلاقة جماهير الناس في القرى المصرية بالمعارض المقامة في الأحياء الراقية، التي أطلق عليها شاكر أحد الفنانين الثلاثة اسم: «الأماكن المِسْتَحَمِّيَّة»، مثل قاعات العرض الفاخرة في الزمالك وجاردن سيتي. سرح خيالي حتى وصل إلى الحقول الممتدة في بلدتنا، وتخيلت أن وزارة الثقافة قررت أن تقيم معرضًا للفن التشكيلي في سرادق كبير يتماس مع الحقول، ويفتح أبوابه الخلفية عليها. أفقت على صوت مراد يقول موجهًا كلامه لشاكر:

- أتذكُر لوحة □ان جوخ البديعة؛ حقل قمح على ربوة ممتدة صعودًا لتتماس مع خط الأفق، حيث يبدأ النصف العلوي من اللوحة مصورًا سماء زرقاء صافية؟ هي من ألطف لوحات هذا المجنون العظيم. أتعرفون أن هذه اللوحة تطاردني في أحلامي بصورة عجيبة؟ في الحقيقة هو حلم واحد يتكرر كثيرًا.

الصمت والعيون المتطلعة دعته للاستطراد:

- حلم مثل أي حلم لا يزعجني، لكن لا أعرف سر تكراره، ولم أحاول أن أعرف. البداية أكون مواجهًا لهذه اللوحة في متحف □ان جوخ بأمستردام، أنا فعلًا زرته من قبل، ووقفت أمام هذه اللوحة مطولًا، حتى قلق مني الحرس وحاموا حولي مقتربين خشية أن أقفز داخل اللوحة.

ارتفعت الضحكات، وقطع الحوارَ عم صبحي وهو يمد يده نحو مراد، شادًّا إياه ليقف قبالته ثم يبدأ في تقبيله مرة ثانية. انتقل بعدها لتقبيل كل الجالسين على طاولتنا بالطريقة نفسها. جلس مراد ضاحكًا مكملًا حديثه، كأنما لم ينقطع، وقد بدأ الزبيب والبيرة والبراندي يسبحون بالرؤوس نحو أمستردام:

- المهم يا أفندية... أتجمد أمام هذه اللوحة مخطوف الأنفاس، تمامًا كما كانت حالتي حين رأيتها هناك، لكن في الحلم أدخل اللوحة... أي والله... وغلاوتك يا شاكر... وحياة عم صبحي وقبلاته

المكتوبة علينا كالقدَر. الحقيقة أن اللوحة هي التي تبتلعني.. تتسع الأرض الخضراء ممتدة إلى خارج اللوحة ملتفة حولي، فجأة يضرب وجهي هواء الحقل البارد الذي أعرف في الحلم أنه نسيم أبريل، وأشعر بأطراف العشب الأخضر الطري تلامس ساقي. أندمج في لازمن مع واقع الحلم كأنه عالمي الذي أعرفه جيدًا، ثم أنطلق بانتعاش غير معتاد باتجاه خط الأفق أعلى الربوة الخضراء. وبالمناسبة، هي ربوة مرتفعة، وانحدارها صعب جدًّاااااا. المهم يا بكوات أبدأ الصعود مهرولًا وأنا مغمور بنشوة لا مثيل لحلاوتها. كل ما يسيطر عليَّ في هذا الجزء من الحلم هو الوصول إلى أعلى نقطة من الربوة لأنظر إلى الجهة الثانية منها. طالما تساءلت... لا لا... توقعت... بل قل تمنيت أن يكون خلف هذه الربوة منحدر أخضر يقود إلى سهل وسيع، ثم إلى ربوة تشبهها، ثم حين أصعد الربوة الثانية أجد الأمر يتكرر إلى ما لانهاية. كنت أتمنى ذلك... أي والله، ولا أدري لماذا يحلم شخص بهذا التكرار اللانهائي. أجري أجري أجري، واللوحة تتسع، وقمة الربوة تبتعد، فيستحيل عليَّ الوصول. ورغم تكرر هذا الحلم مئات المرات، لم أصل... لم أصل... لم أصل.

فتح عينيه وصوت مراد يرن في أذنيه كالعادة، لكن هذه المرة كانت رائحة الحقول في بلدتهم تغمر أنفه بوضوح مذهل.

* * *

خرج بلا تفكير وبلا شيء متجهًا إلى محطة القطار، وعلى غير عادته لم يخطط أو يحسب العواقب. ألقى بنفسه في أول قطار استطاع أن يجد فيه كرسيًّا شاغرًا. في طريقه للصعيد لم يغمض له جفن لساعات طالت. مع هدير قطارٍ لم يتوقف سوى مرات قليلة، تقافزت مشاهد عشوائية أمام عينيه؛ بعضها ممتع، ومعظمها موجع. حين مر القطار بسرعته المعتادة على قريتهم، كان الظلام محيطًا وساكنًا بوقار كأنه التاريخ نفسه. نزل بهدوء في محطة سوهاج وهو يتنسم روائح عتيقة يعرفها جيدًا كأنما غادر بالأمس. تَحَرك خارجًا من محطة القطار. ميدان المحطة متسع، تتوسطه حديقة ضاقت قليلًا عن صورتها في خياله. لم يفكر كثيرًا قبل أن يتوجه للفندق الصغير المواجه لمبنى المحطة. طالما تعجب وهو طفل من هذا الفندق، وتساءل عن شكل غرفه التي يسكنها البكوات والهوانم الذين يخرجون بهيئة نظيفة، ويخطون ببطء من أعلى هابطين سلالمه الرخامية العريضة تحيطهم هالة من الثقة والسعادة. تُرى هل هي معتمة الجدران مثل بيتهم؟ أخبروه ساعتها - وقد تظاهر بأنه يفهم - أن تلك المكعبات المعدنية التي تبرز من الجدران وتهدر بانتظام، هي أجهزة لتكييف الهواء. لم يفارقه الحلم بأن ينزل ضيفًا على هذا الفندق يومًا ما.

دارت عيناه في أرجاء المكان. كل شيء هنا أصيل، ويبدو عليه الإرهاق. واضح أن التماثيل العتيقة التي تزين الأركان لا تَلقى أي قدر من الصيانة، شأنها شأن كل شيء آخر، بما في ذلك موظف الاستقبال، الذي بدت سترته قديمة وربطة عنقه متهدلة، وقد أحاط بعقدتها خيط من عَرق

متحجر يدل على أنه لم يفكها قط.

بعد إجراءات سريعة أمام منصة الاستقبال، صعد إلى الغرفة التي حرص على أن تكون في الدور الأخير وتطل على الميدان. نزع الجاكيت وألقاه على السرير الصغير، في حين كان العامل يُدخل حجر البطارية في جهاز الريموت الصغير ثم يضغط عليه. علقت عيناه قليلًا بجهاز التكييف الذي بدأ في الهدير وإرسال هواء ساخن سرعان ما اتخذ طريقه نحو البرودة. مد يده بورقة كبيرة جعلت وجه العامل يشرق وهو يعلن استعداده لأية خدمة. خرج بإيقاع بطيء إلى الشرفة الخشبية. نظر إلى الميدان والقطارات من أعلى. أجال بصره في الكائنات التي تسير في الشارع. سيطر عليه شعور راحة عميق مغلف برائحة المكان. لم يصبر كثيرًا على النزول إلى الحياة. لأول مرة يتسع فمه بابتسامة عريضة حين انتبه في منتصف السلالم الخارجية للفندق أنه ينزل ببطء، وقد تعلقت به أنظار طفل في السادسة تقريبًا يمشي في الشارع ممسكًا بطرف جلباب أمه.

في ثوانٍ قليلة انتظم - دونما إحساس بغربة - ضمن تيارات البشر المتحركة في كل اتجاه. شعر أن الشارع التجاري الملاصق لميدان المحطة أصغر مما يتذكر. توقف كثيرًا أمام يافطة «بيع المصنوعات المصرية» وقد تحولت إلى شاشة عملاقة، تتناثر عليها صور ومشاهد قديمة تغطي عروق التراب التي تمتد كسرطان في أنحاء اليافطة. دخل متمهلًا:

- أريد بيچامة من فضلك.

- الدور الثاني يمين السلم.

المكان خاوٍ إلا من موظفين يحاولون بيأس لعب دور البائع. جلستهم المسترخية، وأكواب الشاي المتناثرة أمامهم، وعدم التفاتهم له، أشارت جميعًا إلى أن مواعيد الانصراف قد اقتربت. عاد بالبيچامة إلى الفندق وهو يفكر في يومه التالي.

في الصباح هبط إلى مطعم الفندق. نظر بهدوء إلى المنضدة الطويلة التي تراصت عليها صحون الطعام؛ بيض مسلوق، جبن قريش، جبن مثلثات، حلاوة طحينية، علب عسل أبيض صغيرة، زيتون أخضر، قدرة فول حولها صحون صغيرة فيها ملح وكمون وفلفل وشطة وزيت. صنع طبق فول بالشطة، ثم طلب كوب شاي. نزل بعدها إلى استقبال الفندق:

- أريد سيارة تصحبني في مشاويري.

- تريدها سعادتك يومًا كاملًا أم...

- يومًا كاملًا.

- تحت أمرك.. تفضل يا باشا.

أجرى الشاب اتصالًا، وبعد أقل من خمس دقائق ظهر كهلٌ في مثل سنه أو أكبر قليلًا، يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أزرق باهت اللون وحذاء خفيفًا. بدا وجهه مألوفًا.

- مع الباشا يا عم شناوي.

التفت إليه الرجل بعينَي ذئب تحاولان ادعاء الطيبة.

- تفضل يا باشا.

تَمَلكه شعورٌ بأنه يعرف هذا الوجه وتلك النظرة، لكن الملامح تاهت بين وجوه كثيرة تدافعت على ذاكرته منذ ركب القطار في محطة مصر.

- على قرية البكاري لو سمحت.

رمقه الرجل من مرآة السيارة التي تواجهه:

- هل أنت منها يا بك؟

عينا السائق تحملان شيئًا غامضًا من رائحة الماضي.

- لماذا تسأل يا أسطى؟

- أنا من البكاري.

أخذت الصور تتحصر في وجوه معينة من الماضي البعيد. لا بأس من مراهنة أخرى مع الذات. همس لنفسه:

- ترى من كنت؟ لقد ناداه موظف الاستقبال باسم الشناوي... سأعرف بلا شك... وقبل أن نصل القرية.

جذبت عينيه مشاهد الطريق التي اختفت الحقول أو كادت من على جانبيها، وارتفعت كتل أسمنتية قبيحة بلا نظام. رجرجات جسده لم تختلف كثيرًا عما كان يلقاه في سيارات نقل الركاب وهو صغير، خاصة مع قيادة الشناوي العنيفة. طلب من السائق التوقف قبل أن يصلا إلى القرية.

- ولكن... هنا القرافة يا بك!

- أعرف.

تَرَجَّل وهو لا يذكر شيئًا عن المكان الذي لا يحتل أية مساحة من ذاكرته. توجه إلى رجل وحيد يجلس أمام المدافن. بعد حوار قصير نهض الرجل المسن متثاقلًا، ومشى ببطء إلى داخل المقابر.

- هذا قبرها.. ابنها الكبير دفن فيه العام الماضي، أما ولدها الصغير فلا نعرف عنه إلا القليل، يقولون أصبح باشا من باشوات مصر.

شعر بجسده يتصبب عرقًا بلا توقف، ليس من الشمس التي بدأت حرارتها تقوى، وقد فردت أشعتها بصفاء على مساحة الأرض الممتدة، من دون أن تعوقها شواهد قبور هزيلة لا توحي بأية رهبة. لا شيء يدور في عقله، لا شيء على الإطلاق. خواء تام وارتفاع عن جسده لم يجربه من قبل، كأنه يراقب المشهد كله من أعلى. مرت دقيقتان وهو غائب عن كل شيء. خواء وصوت رياح خفيف. ثبتت عيناه على القبر الصغير الذي انهدم جزء من شاهِده. لم يدرِ كم مر من الوقت.

كان كمن سقط في هوة زمنية لا يملك الخلاص منها. انتفض على صوت مقرئ مسن اتخذ مجلسه بجوار القبر وبدأ في تلاوة آيات من القرآن. مد يده إلى سيالة الجلباب ليُخرج بعض النقود، لكنها اصطدمت بالجاكيت الصوف الفاخر. تحسس جسده كمن يتأكد من وجوده. أخرج محفظته، ومنح المقرئ أكبر ورقة نقود فيها.

انتشل نفسه بصعوبة من تلك الهوة، واستدار عائدًا. وخزته نظرات الشناوي الذي اتكأ على حافة السيارة وقد أشعل سيجارة هامسًا لنفسه:

- لا أحد يزور القبور إلا أهل المكان... هو كذلك... لكن من تكون أيها الغريب؟

ألقى بنفسه في السيارة وقد غطى وجهه العرق وغبار المقابر.

- هل نكمل إلى القرية يا بك؟

- لا... عُد بنا إلى الفندق.

- ما اسم الكريم؟

- ولماذا تسأل... هل سألتك عن اسمك؟

- أنا الشناوي.. زكريا الشناوي.. محسوبك.

التقت عيونهما في مرآة السيارة. انفجر ضاحكًا بكل ما خلَّفه مشهد القبور من ضغط:

- زكريا الشنااااااااوي... زيكو... يا الله.

- زيكو؟! هذا الاسم لا يعرفه أحد من أيام...

- من أيام عصابة البطيخ يا زعيم.

تبعثرت ملامح الرجل وقد تزاحم عليها الابتسام والتقطيب والذهول:

- نعم... نعم... أنا أعرف سعادتك جيدًا... أكيد...

- لا.. أنت لا تعرفني... ولا تريد أن تعرفني... قُد السيارة وأنت ساكت.

قالها بكل ما يملك من سلطة، وقد عاد إلى أذنيه صوت زيكو الصبي وهو يَسخر منه. انعقد لسان الشناوي تمامًا، لكنه لم يتوقف عن استراق النظرات إليه طوال الطريق.

عند مدخل الفندق أطال النظر في عينَي الشناوي، وهو يمد يده بضعف المبلغ المتفق عليه. لكنه لم يحصل على عاصفة الشكر المنكسر التي توقعها. مد الرجل يده بلا كلمة وقد ظهرت في عينيه نظرة قديمة، ثم اتسع فمه بابتسامة خفيفة قبل أن يستدير وهو يهمس:

- عرفتك... إنت ابن عليَّة.

من منا يجرؤ على تعرية الحقيقة في اللحظة المناسبة، والجهر بها بصوت عالٍ؟ لا تُحَمِّر عينيك يا أفندي، أعرف هذه النظرة التي تعلن عن إمساكك بخطأ تستعد لاستعراض عضلاتك العقلية في الكشف عنه. أنا لا أتحدث عن الحقيقة الكونية المطلقة التي أشك في وجودها أصلًا، ألم يكن هذا اعتراضك العبقري، إنما أقصد - وأنت تعرف ذلك أيها الماكر - الحقيقة كما تراها في عمق روحك الآن هنا. بص... ببساطة: أكثرنا جرأة ووضوحًا مع ذاته، يختار التوقيت الخطأ لكي يتباهى كالطاووس بشجاعته وتمسكه بقيم نبيلة. لا تحدثني عن أولئك الذين ضحوا بحياتهم لأنهم نطقوا بالحقيقة في التوقيت المناسب. هؤلاء إما لم يتوقعوا أنهم يضربون على أعصاب مكشوفة سوف يسحقهم أصحابها بلا رحمة، أو أنهم لم يقصدوا؛ سَكِروا بطعمها، أو غلبتهم الحماسة. أنا مثلًا... كنت أخوض معارك صغيرة آمنة، أعرف أنها لن تقضي عليَّ. طالما داريت عجزي عن قول الحقيقة في وجه الكبار بالصراخ بها في وجه من لا حيلة لهم، لكني أبدًا لم أقل ما يتناقض معها. كنت أسكت سكوت العاجز، الطامع في اقتناص فرصة للصراخ بالحقيقة في وجه الجميع، وصنع زلزال يدمر الزيف والكذب والمصالح الغبية. هذا هو الحلم الذي لم أخنه يومًا.

بدأ مراد في التلاشي داخل سواد كوني مهول أخذ يتمدد باتجاهه ليبتلعه. انتفض وهو يشهق ويلقف نفسه كالغريق. وجَّه ناظريه دونما تفكير وبكل ما يملك من تركيز في ظلام الغرفة، كأنما يحاول اللحاق بمراد قبل أن يختفي في ثقبه الأسود. صرخ:

- ما هذا... ما هذا... أهي لعنة مست روحي، أم تُراها رحمة مهداة تطهرني بنيرانها الملتهبة؟ مراد... يا مراد... أعرف أننا لن نعيش مرتين... وأننا ذاهبون بلا رجعة عاجلًا أم آجلًا... وأنا أحاول... أحاول حقًّا... بصدق وإصرار... أحاول أن أخترق طبقات الزيف في روحي وعقلي. أفرغ كالمجنون كل شيء على الأوراق لعلني أتطهر، وأعرف أنني أملك القوة لهدم المعبد على رؤوس الجميع.

الظلام يكسو الكون من حوله. لم يحاول أن يعرف في أية ساعة من الليل هو. سرَت رعشة خفيفة ولذيذة في جسده المكسو بالعرق. توجه مباشرة إلى المطبخ. وبدلًا من إشعال الموقد، وضع رأسه تحت مياه الصنبور المثلجة، ثم كور يديه تحت خيط الماء المتدفق وأخذ يشرب منهما كما كان يفعل وهو صبي أمام «الطلمبة». أخذ كوب القهوة الذي صنعه على مهل إلى الصالة. جلس على المنضدة أمام أوراقه وقطرات الماء لم تزل تتساقط خلف أذنيه.

«منذ ارتطمت قدمي المرتعشة بسلم قطار بحري المتجه إلى القاهرة، شعرت بأنني قد خُلقت لسفر مجهول وبعيد. وها أنا مسافر بلا راحة من حلم إلى حلم، ومن سجن تصنعه تلك الأحلام إلى سجن آخر يصدمني به الواقع. كل خطوة تأخذني للأعلى كانت تقضم جزءًا من روحي بأسنان منشار. تتوالى المحطات بإيقاع منتظم، وأنفاسي تتلاحق كي أكون هناك في المحطة المناسبة، في

الوقت المناسب، لكنني أشعر دومًا بأنني ذاهب إلى محطة أخيرة مجهولة، وفي موعد محدد قرَّرَتْه الحياة بلا إرادة مِني.

محطات القطار والمطارات دون سواهما تعيد إلى قلبي هذا الشعور. لا يهم ما الذي سينطلق، أهو قطار يشق ظلام الحقول بكشاف جبار يزيح كل شيء من أمامه لتمر عرباته كالسهم، أم طائرة تتقاذفها الرياح وتبدو كائنًا لعوبًا يتحايل كي تلامس عجلاته الأرض مرة أخرى، ولعلها رحلة موجعة في الماضي. في الأحوال جميعًا لابد من سفر، وبلا راحة، بلا راحة. أتذكَّر المرة الأولى التي ركبت فيها طائرة. آااااه شما شمايل رفيقة الروح التي لم أقابلها سوى مرات معدودة. لن أخدع نفسي؛ فلست ملاكًا بريئًا يستمتع بذكرياته المشرقة... أعرف أنني آذيت كثيرين وخنت كثيرين. هه! يا له من اعتراف صادق، وساذج، ومتأخر. ربما أتمكن يومًا ما يا مراد من أن أحكي لك عنها».

تحدرت دمعة من عينه متخِذة طريقًا مباشرًا باتجاه شفتيه المنفرجتين عن ابتسامة استسلام.

- على مهلك يا أستاذ، إنت دعست رجلي!!!

- آسف... هذه أول مرة أركب طيارة.

ابتسمت بأمومة أحسها فورًا، فبادلها بابتسامة طفل يخطو خطواته الأولى.

في الطائرة تبادلا النظرات وهو يمر إلى جوارها، بعد بحث قصير وجد كل منهما مقعده.

- من فضلك يا أستاذ!

- نعم؟!

- لو سمحت نتبادل الكراسي كي أجلس بجوار زوجتي؟

أشار الرجل باتجاه زوجته التي وقفت مرتبكة وقد غطاها السواد من رأسها لقدميها.

- لا مشكلة!

حمل حقيبته الصغيرة. تحرك ملتصقًا بالكراسي مبالغة في الابتعاد عن الزوجة، وقد دهمته ذكرى جعلته يبتسم ساخرًا. وصل إلى المقعد البديل، فوجد نفسه إلى جوارها.

- فرصة أعتذر لك ثانية.

- ما حصل شي.

لم يتمالك نفسه من الضحك... فنظرت إليه متسائلة:

- الجماعة لابسات الليل هؤلاء يذكِّرْنني بموقف كوميدي.

استرسل بناء على طلب من نظرتها:

- كنت في ميكروباص شارع الهرم، تعرفين طبعًا معنى ميكروباص شارع الهرم؟

- لا... ما بعرف!

لاحظ لكنتها الغريبة لأول مرة وهو يكمل:

- ميكروباصات الهرم هي وسائل تعذيب على شكل سيارات متوسطة الحجم، أهم شيء يميزها الزحام وسوء القيادة... المهم أشار شخص بذقن ومعه إحدى لابسات الليل.

اتسعت ابتسامتها فراعه مدى سحرها.

- في طريقهما للأريكة الأخيرة من الميكروباص، كان الرجل يضع يديه بين زوجته وبين الناس؛ مرة يدفع الجالسين، وأخرى يدفعها هي خوفًا من أن يلمسها أحد. سكت كل من في الميكروباص من التوتر الذي فرضه علينا، ثم انفجرت النكتة من أحد الذين أصابتهم دفعة قاسية من الزوج المفزوع. صرخ الرجل بصوت مرتفع وبلا سابق إنذار: طخها طلقتين أحسن.

ارتفعت ضحكتها لافتة أنظار المحيطين. توقف عن الحكي محاولًا فهم الهزة التي أصابت قلبه.

- أنتم المصريين... شو عم بدي قول... تحولون كل شي لنكتة بتفقع!

- تمسخرينني أليس كذلك؟ ما معنى «بتفقع» هذه؟

تعالت ضحكتها ثانية، غير عابئة بنظرات الركاب الذين أخذ النعاس طريقه سريعًا نحو أعينهم، بعد أن استقرت الطائرة على ارتفاع كبير بدت معه القاهرة بساطًا من الأضواء الشاحبة.

- لا لا... يعني تموِّت من الضحك.

مد يده، فاحتضنتها:

- أنا شمايل.

لم يكن مطار بيروت هو وجهتهما النهائية. كان في طريقه إلى موسكو لتغطية مؤتمر، وهي في طريقها إلى لندن. سوء الأحوال الجوية أدى لتأخر الرحلات جميعًا لسِت ساعات وربما أكثر. توجه إلى موظف الاستعلامات الذي بدا عليه التوتر:

- كيف نقضي هذه الساعات الطويلة.

جاء صوتها من خلفه:

- ما في حل غير فندق قريب من المطار نرتاح فيه شوي، أتود مرافقتي؟!

- بل أتمنى.

خرجا من المطار. شعر أن القدر قرر أن يجمعهما في طريق لا يمكن التنبؤ بنهايته. في التاكسي ظهر أنها تعرف بيروت جيدًا.

- أنتِ لبنانية إذن؟!

- تستطيع أن تقول ذلك، أنا بنت تل الزعتر.

ساد صمت معبأ بوجع عميق للحظات.

- أصولي عجيبة؛ أمي فلسطينية، وأبي لبناني، جدي لأمي مصري، وجدتي لأبي سورية، ويقولون إن لنا أصولًا من المغرب. المهم أنا ولدت في يافا، وانتقلنا وأنا طفلة إلى بيروت، حضرت المعركة، بعدها خرج أبي مع قوات فتح إلى تونس، كان قريبًا من ياسر عرفات. بقيت أنا وأمي في بيروت لسنتين، بعدها اختار لنا أبي الإقامة في القاهرة. مصر غير، لا يشعر فيها أحد أنه غريب.

- وهل تمكنت من العودة إلى فلسطين يومًا؟!

- لا، أمرُّ فوقها فقط بالطائرات، لقد أخذوها للأبد.

- مستحيل... هذه قضية العرب جميعًا... لن نفرط فيها أبدًا.

اتسعت ابتسامة على جانب واحد من فمها، وهي تهمس لنفسها: «يبدو أنك من محبي الكليشيهات الفارغة».

- هنا سنقضي الليلة.

كانت غرفتاهما متجاورتين، وهو مسحور بكل شيء فيها. بمجرد أن دخل غرفته أمسك سماعة

الهاتف متصلًا بها. لم يكد الهاتف يرن حتى جاءه الرد:

- كنت أمد يدي للهاتف كي أتصل بك!

- واللهِ!... لماذا لا نشرب قهوة عندي أو عندك؟

بعد لحظات كانت تطرق الباب الفاصل بين الغرفتين:

- ألا يجب أن نجرب هذا الباب أولًا؟!

- هل حاولت؟

- نعم، لكنه مغلق بإصرار... حاول من جهتك.

أدار المقبض لكنه لم يستجب. كانت قد تخففت من الجاكيت وهي تخطو إلى غرفته بثبات، فبدا جسدها أكثر نحولًا في قميصها الأبيض الناصع ذي الأكمام الطويلة. بادرته:

- عطرك جميل، غامض لكنه قوي.

- شكرًا... لأول مرة يعلق أحد على عطري!

- العطور عناوين أصحابها لمن يميز الروائح.

- شاي... قهوة؟!

- قهوة بلا سكر.

- أنا أشربها سكر زيادة.

- أنت لا تعرف القهوة إذن... جرب السادة.

- مممممم أجرب.

- ماذا تعمل؟

- صحفي، وأنت؟

- عجيب، أنا أيضًا أكتب للصحافة، لكنني في الأصل مصممة أزياء. متزوج؟!

- لا... وأنت؟

- كنت... وبعد ذلك لا تكلف نفسك إعادة السؤال، أنا سأسألك ثم أجيب عن سؤالي.

تعالت ضحكاتهما. جلست على كرسي مواجه للشرفة، واحتل الكرسي المقابل لها.

- تزوجت ولم أحتمل الحياة لأكثر من ثلاث سنوات.

- من يفرط في مثلك؟!

- شكرًا على المجاملة، لكنه لم يفرط، هو فقط استجاب لطبيعته، صمد لأسبوعين ثم بدأت خياناته، في السر أولًا، ثم بعد ذلك بوقاحة وعلى الملأ. ما هذا الشج فوق حاجبك؟ يبدو كأنه مرسوم بقلم حبر.

ابتسم مداريًا الذكرى المريرة.

- جرح قديم منذ الطفولة.

- لماذا أشعر بأمان معك، رغم أني لا أعرف عنك شيئًا؟!
- لا أدري! لكنه شعور متبادل.
استمع لها كثيرًا، وتكلم قليلًا، لكنه لم يتلاعب بشيء مما حكى عن نفسه. ملأه شعور اطمئنان لم يعرف له مثيلًا. قبل أن تتحرك عائدة إلى غرفتها، لمحًا مفتاحًا صغيرًا بجوار التلفاز:
- معقول... أيكون مفتاح الباب بين الغرفتين؟!
- لنجرب.
مد كل منهما يدًا في اللحظة نفسها نحو المفتاح، وضحكا حين تراجعا معًا.
- أنا سأجرب.
تناول المفتاح واتجها معًا نحو الباب الفاصل. نظر نحوها متسائلًا:
- ماذا تتوقعين؟!
- سيفتح.
أدار المفتاح فانفتح الباب، لتعطر ضحكتها غرفته مرة أخرى.
- ألم أقل لك؟!
- يمكنك العبور كلما شئت طبعًا، وليكن المفتاح معك.
- لا فرق... قلت لك إني أشعر بأمان.
مرت إلى غرفتها وقد داهمتها رغبة طاغية في أن تلتفت وتلقي بنفسها في حضنه.

كان يستطيع من دون شك أن يمتلك فيلا في أي كومبوند فخم، لكنه يفضل شقة وسط البلد التي استأجرها بعد أن بدأ عمله يزدهر كصحفي، ثم امتلكها حين توفي صاحبها وقرر الورثة بيعها.

- من يبحث عن الأمان خلف أسوار مكان معروف بالاسم، كمن يحاول الاختفاء من عيون الناس في قلب بقعة ضوء يرسلها عمود إنارة في شارع مظلم. الأمان الحقيقي أن تكون في الزحام، نقطة شاحبة ضمن تيار الكائنات العجيب في قلب القاهرة.

لا يعرف أحد عنوانه بالتحديد؛ فقد كان حريصًا منذ سكن هذه الشقة على ألا يدعو أحدًا إليها، بل كان يتجنب ذكرها ويتهرب من أي سؤال عن مكان سكنه.

- مكانك مملكتك... أنت حر فيها حرية مطلقة... يمكنك أن تفعل أي شيء يعنُّ لك، فلماذا تضع على حريتك قيودًا من أعين الآخرين، وفضولهم، وأفكارهم الخبيثة. نعم نعم، حتى لو كانوا من الأصدقاء... يا صديقي.

مرات قليلة أعلن فيها فلسفته هذه، لكنه طبقها حرفيًّا، وبدقة تشبه دقته في استغلال الفرص. واجهته مشكلة الاعتناء بالمنزل؛ من تنظيف، وطبخ، وتولِّي صغائر الأمور: تغيير أنبوبة الغاز، دفع فواتير الكهرباء والمياه، شراء لوازم البيت، وغير ذلك من الأشياء التي لا يملك الوقت أو الخبرة ليهتم بها؛ لذا كان عليه أن يوكل أمر تدبير البيت لشخص آخر. بعد تفكيرٍ دام أكثر من سنة، توصل أخيرًا إلى طريقة لاختيار مدبرة للمنزل: ينشر إعلانًا في أية جريدة كبيرة، بعيدة عن المؤسسة الصحفية التي يعمل فيها، طالبًا مدبرة منزل بمرتب مغرٍ، حسنة المظهر، لا تقل خبرتها عن عشر سنوات في تدبير منازل كبيرة أو فيلات. السن لا يقل عن خمسين عامًا، وكذلك يشترط أن تكون متفرغة، رغم أنه لا يسمح لها بقضاء الليل في شقته، بل إنه يحرص على ألا يلتقيها كثيرًا؛ كي لا تسقط الهيبة وتتسع مساحة الحوار والود بينهما.

بعد وفاة الست كوثر، مدبرة منزله الأولى، التي قضت معه ما يقارب الاثنتي عشرة سنة، نشر الإعلان مرة ثانية. استقبل عددًا لا بأس به من الطلبات على بريد إلكتروني ينشئه لهذا الغرض وحده، ثم يلغيه بعد انتهاء المهمة. حدد اثنتين تتمتعان بالشروط كلها، وبقيت المقابلة الشخصية التي ستحسم الاختيار، وستكون بعد الغروب في لوبي فندق فخم قريب من المطار. ذهب قبل الموعد الأول بساعة كاملة. يحب دومًا أن يألف المكان، ويسبق من سيقابل؛ ليراقب دخوله متأملًا فيه. هو واثق أنه سيعرف السيدتين منذ خطواتهما الأولى في المكان. سيتركهما قليلًا متأملًا حركات جسديهما ونظراتهما قبل أن يرفع يده معلنًا عن نفسه. ورغم بشائر الظلام التي لاحت في الأفق، وضع نظارة شمسية عريضة على عينيه، مرتديًا قبعة توفيق الحكيم بصورة مائلة؛ لتخفي جزءًا لا بأس به من وجهه.

هكذا اختار أم عزة مدبرة منزله الحالية. هي قليلة الكلام والأسئلة على عكس المرشحة الثانية التي تلتها، وهذا وحده كان كفيلًا بحسم الاختيار. الأهم أنها كانت موظفة في وزارة الصحة. الوحدة بعد سفر ابنتها مع زوجها وأبنائهما إلى إحدى دول الخليج، وقلة زياراتهم، إضافةً لغلاء المعيشة، أجبراها على العمل متخفية كمدبرة منزل لدى بعض الأثرياء منذ منتصف التسعينيات. لعل حذرها الزائد هو ما جعله يخطئ - ويا له من خطأ نادر - في تمييزها من الوهلة الأولى حين دخلت إلى لوبي الفندق: سيدة في ثوب أزرق طويل، يعلوه بالطو من الفرو الصناعي الأسود من نوع ليس بالرخيص، تضع نظارة شمسية سوداء واسعة، ويغطي رأسها «بونيه» من الصوف يميل إلى جانب وجهها الأيمن ليخفي معظمه.

- أعتذر عن النظارة... لكن... إحم... متأسفة... لن أرفعها؛ فأنا موظفة كبيرة في وزارة الصحة... إحم... كنت... واستقلت من حوالي ست سنوات حين بلغت الخمسين. لم يَعُد هناك معنى للوظيفة؛ فدخلي الآن أضعاف مرتبي. لذلك أنا حريصة... إحم... كنت حريصة ولم أزل على ألا يعرف أحد أنني أعمل كمدبرة منزل... حضرتك تفهمني؟!

راقه أنها مثله في الالتزام بالمواعيد، والرغبة في التخفي التي أصبحت جزءًا من شخصيتها. لم يهتم بالتفاوض حول الراتب؛ فمثلها يندر وجوده.

لأربع سنوات، أدارت أم عزة بيته بدقة الساعة؛ تأتي ستة أيام في الأسبوع، وتتابع كل شيء يمكن أن يؤرقه. لم تتجاوز الحدود التي رسمها في لقائهما الأول؛ فلم تسأله يومًا سؤالًا شخصيًّا، ولم يشغلها أن تتعرف على طبيعة عمله، كما أنها لم تستخدم رقم الهاتف الذي خصصه لها إلا في حالتين طارئتين؛ حين انفجرت ماسورة المياه في حمام الشقة، والمرة الثانية حين تغيبت أسبوعًا بسبب المرض. باستثناء يوم السبت، لا يكون موجودًا حين تأتي أم عزة. يخرج إلى عمله في الثامنة صباحًا، وهي تأتي في التاسعة، وتغادر في الخامسة قبل أن يعود. في بعض الأحيان كان يضطر للعودة أثناء النهار، ليجدها منشغلة في عملها غير ملقية بالًا له. أيام السبت فقط تأتي أم عزة مع دقات الثامنة صباحًا، لتجده جالسًا في الشرفة الواسعة المحاطة بستائر ثقيلة وأواني الزهور، مرتديًا روبه القطني، يقرأ أو يستمع إلى الموسيقى. تُحضر له الإفطار في صمت، ثم تتصرف لما تفعل.

السبت الماضي كان مشهودًا...

أغلقت أم عزة الباب من الداخل، ثم التفتت لتجده ملقى على الأرض أمام منضدة الطعام وقد تناثرت عليها الأوراق. ضربت بيدها على صدرها وهي تجري، بعد أن ألقت بحقيبتها على الأرض. نزعت الورقة التي قبضت عليها كفه اليسرى وألقتها على الطاولة. هرولت إلى غرفة النوم عائدة بزجاجة عطر. بعد أن استنشق، فتح عينين ثقيلتين.

- أطلب الإسعاف يا أستاذ؟

- لا... لا... لا... إلا الإسعاف.

قالها ثم غاب مرة أخرى. وقفت السيدة مبتلة بحيرتها، حتى لمحت هاتفه المحمول على الطاولة بين الأوراق، فقررت ما ستفعل.

- ألو... آسفة على الإزعاج... لكن حضرتك آخر شخص اتصل به الأستاذ... أرجوك الحقني.

* * *

دخل نائبه مندفعا وهو يحسب أنه سيجد رئيسه متكئًا على أي كرسي ينظر نحوه باستهتار كعادته. لكن ما وقعت عليه عيناه ألجمه للحظات، وشل تفكيره. كانت أم عزة ممتقعة الوجه وهي تفتح له الباب تدعوه للدخول:

- بسرعة أرجوك، الأستاذ حذرني من الاتصال بالإسعاف... لا أدري ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا يوجد حل... لا بد من نقله للمستشفى فورًا.

في الداخل كان نور الصالة خافتًا، وهو ممدد على الأرض أمام منضدة الطعام. جرى نحوه. جثا على ركبتيه إلى جواره. هاله اصفرار الوجه الظاهر رغم خفوت الضوء. داخَله شعور أنه أمام جثة هامدة، لولا دقات النبض الضعيفة التي سمعها، حين ألصق أذنه فوق الجانب الأيسر من الصدر.

- لا يوجد حل سوى الإسعاف... فورًا.

هرولت أم عزة كمن كانت تنتظر تأكيدًا. طلبت الإسعاف بصوت ملهوف.

- منذ متى وهو على هذه الحالة؟!

- حوالي ربع ساعة منذ اتصلت بك... حضرتك وصلت بسرعة!

- نعم، كنت في وسط البلد بالصدفة... لم يستغرقني الأمر أكثر من الاستدلال على العنوان.

- قالوا سيصلون فورًا... أنا اتصلت بإسعاف المستشفى الخاص الذي يتردد عليه الأستاذ في العجوزة.

- خيرًا فعلت.

سكتت، وهو بدأ يشعر للمرة الأولى أنه في بيت الأستاذ، الجنرال، رئيسه. إنه في عش العنقاء الأسطوري، الذي لا يجرؤ أحد على التفكير في اقتحامه، بل لا يعرف مكانه إنسان حتى سائقه الخاص. جالت عيناه في الصالة: الحوائط داكنة وعارية إلا من لوحتين؛ الأولى يملأها وجه مراد، واللوحة الثانية لثعلب سجين يلتفت بوجهه للناظرين وقد أولاهم ظهره. لكنه لم يركز ليتبين دقائق اللوحتين.

انتبه إلى أنه لم يزل مقعيًا إلى جوار الأستاذ. نهض وسحب واحدًا من كراسي منضدة الطعام. لاحظ الأوراق التي تتناثر على المنضدة كلها بلا نظام. مد يده مستغلًّا غياب أم عزة في المطبخ.

تَعرَّف على خط رئيسه فورًا. ارتفع حاجباه حين تأكد أنها مذكرات كُتبت بخط اليد. لم يمهله شيطانه لحظة للتفكير؛ إذ واتته الخطة فورًا مع سماعه لدوي سيارة الإسعاف يقترب.

كان قد جمع الأوراق كلها في كومة واحدة منتظمة، قبل أن يدخل رجال الإسعاف ليحملوا الملقى على الأرض. حرص على أن يقف خلفهم وهم يحملونه ليكون آخر الخارجين من البيت. رفع صوته آمرًا أم عزة بفتح الدرفة الثانية من باب الشقة؛ ليتمكن رجال الإسعاف من المرور بالنقالة. في هذه اللحظة انتشل كومة الورق من فوق المنضدة، واضعًا إياها داخل الجاكيت ومحكِمًا عليها إبطه، تمامًا كما كان يسرق الكتب وهو طالب من معرض الكتاب. لحقت أم عزة بسيارة الإسعاف قبل أن يغلق الممرضون بابها. حين جلست إلى جواره تلفَّتت حولها فلم تجد لمن اتصلت به أثرًا!

أيتها الشياطين الساخرة
إلى متى ستظل أشباحك ملتصقة
بعيني ؟!! وكيف فشلت كل
نجاحاتي في إخضاعك أو طردك ؟!!
من أنا حقاً ؟!
أما زلت أملك وجهاً يحمل ملامحي
الحقيقية .. أم تراها تمزقت
بين الأقنعة ؟!

- أين أنا؟

لا يعرف ما حدث بالتحديد. ورقة أخيرة كانت أمامه يعلن بياضها، على ما يتذكر، عن حلم جديد. لقد حاول استدعاء كل ما تخفيه الذاكرة، حتى الخيبات والسقطات بكل ما فيها من مرارة، فضح كل شيء علَّه يبرأ من سقم الروح. هذه المرَّة شعر بآلام غير مفهومة في صدره، تجرع بعض الماء وأصر على محاولة الكتابة، كتب ومزَّق، وكتب ومزَّق، حتى شعر بالدم ينسحب من عروقه.

أدار عينيه فيما حوله. تَعرَّف على غرفة مستشفى، ووجهِ أم عزة بنظارتها الشمسية العريضة.

- ماذا حدث؟!

- الحمد لله على سلامتك. كدنا نفقدك، لكن الله سلم.

أغمض عينيه في محاولةٍ يائسة لتذكُّر ما حدث: المنضدة... الأوراق... مراد... أنا... الثعلب السجين... ثم غاب مرة أخرى.

مر أسبوعان وهو في حالة غيبوبة متقطعة، قبل أن يفيق ويسمح له الأطباء بالحركة.

- لن أخفي عليك، حالة القلب تحتاج منك عناية خاصة، لا يمكن للعضلة المسكينة أن تتحمل كل ما تلقيه عليها من هموم، حتى الجراحة لن تفيد.

رنت كلمات الطبيب في أذنيه، وهو يتكئ على أم عزة مغادرًا المستشفى.

يحاول الاختباء من الرصاص المتطاير كذبابٍ أصابه الجنون، يجري والانفجارات تتوالى حوله بلا نظام، اقتحم الفزع كل خلية في جسده دفعة واحدة. رأى مراد ممسكًا بمدفع كبير مضاد للطائرات يوجهه لأعلى ويضرب في كل اتجاه، جرى نحوه والانفجارات تزداد حدتها، ارتمى تحت قدميه. كانت هناك زهور بيضاء عجيبة تنمو بسرعة ومراد يلف بقدميه دون أن يمس إحداها. رفع وجهه نحو مراد فوجده ينظر إليه وهو يمد يديه قائلًا:

- قم... لا تخَف يا أفندي.

توقفت أصوات المدافع والانفجارات بغتة، وملأته سكينة مفاجئة، ويقين مبهم بأن الحرب قد انتهت.

- ما هذه الحرب؟ هل انتهت؟

- حرب؟! أية حرب؟! لا لا لا.

استيقظ من نومه وقد غمر جسده العرق. فتح عينيه وهو يمسح وجهه بكمِّ البيچامة. ملأ قلبه صفاء لم يعرفه من قبل، تحرك ببطء بحسب أوامر الطبيب، لكنه لم يلتزم بالابتعاد عن الكتابة، رغم تيقُّنه أن نائبه قد استولى على كل ما كتب من مذكرات. شعر أن مراد لم يَعُد يزعجه، مهما كان الحلم موجعًا. تجرع كمية كبيرة من الماء. جلس إلى منضدة الطعام، وهو يمد يده نحو كومة من ورق أبيض ناصع. أمسك بقلمه الحبر المحبب، وبدأ الكتابة دونما تفكير:

دعني أتكلم في صحوي هذه المرة يا صديقي الأقرب، هل تعلم أنك الأقرب على الإطلاق إلى روحي رغمًا عني عنك؟! يا مراد... نحن لم نشارك فيما وقع حين كانت قلوبنا وعقولنا لينة كقطعة عجين لم تختمر، لم تتسع فيها مساحات الفهم والإحساس. لم نختر أنا أو أنت أن يدهسنا الفقر ونحن بعدُ أطفال لا نملك سوى الشعور بالجرح، دون أن نعرف حجم النزيف، أو حتى حجم الجرح نفسه. يا مراد... أمي تعرت باعت نفسها لتسترنا، قبِلت ما منحته إياها الحياة العجفاء حولها، هي أيضًا لم يكن لديها اختيار، ولا أخي الذي لم يحتمل فهرب من البلد كله، ولم أره حتى علمت بموته. وأنا عشت بهذا العار الموهوم الذي لا يطيقه أهل بلادنا الطيبون، لكنهم ببساطة ولا إنسانية يطبقون بأسنانهم على كل ضعيف. لم ألُمها، لكنني لم أستطع أيضًا أن أعيش في مستنقع الحقارة الذي سقطت فيه مرغمًا. هربت إلى القاهرة حين سنحت الفرصة. ما اقترفت من شر، وما التصق بروحي من قبح بعد ذلك كله كان أقل مما أصابني، وما أهدرت من قيم ومبادئ، كان أقل من كرامتي وإنسانيتي التي أهدرها الجميع، مجانًا، من دون فائدة تعود عليهم، فقط لأنهم يستطيعون. هذه تجربتي التي توشك على الانتهاء، ولا أجد فيها ما أفخر به الآن سوى أني استطعت الإبقاء عليك، واستحضارك لعلِّي أتطهر.

ألم تفكر يومًا يا أفندي في الشر من أين يأتي؟ دعك من الشيطان المسكين الذي اخترعناه... نعم اخترعناه... لا تنظر لي هكذا كالمخبرين؛ فأنا لست ملحدًا واللهِ العظيم... وها أنا أحلف لك بخالق الأكوان... الموضوع أننا الشيطان والملاك معًا... الشر والخير وما بينهما في أصل طينتنا يا صديقي، وحين يغلبك شرُّك تكون قد أخلصت ببساطة لبعض طينتك، وزرعت فيها بذورك التي تنثرها هنا وهناك بهبل عظيم... أي وحياتك هبل... وعظيم. ثم بعد أن تثمر البذور تجد نفسك شريرًا، هذا إن كنت قويًّا بما يكفي لتسمي الأشياء بأسمائها. لكن من المؤكد أن الناس سيرونك شريرًا... فللناس عيون ترى وتعرف كل ما سواهم.

قلب نفسه على الجانب الأيسر، ثم فتح عينيه دون أن يتحرك شيء آخر في جسده. ظل محدقًا في الظلام، محاولًا اختراقه لعله يلحق بصورة مراد الآخذة في التلاشي. غمره سلام لم يشعره من قبل في هذه اللحظات التي مرت سريعة. أغمض عينيه ثانية كمن يتمنى أن يكتمل الحلم.

بهدوء زائد أزاح الغطاء وقام متوجهًا إلى المطبخ. كان قد تخطى أزمته الصحية، وسمح له الطبيب بالعودة إلى شرب القهوة. جلس مستكينًا بعمق أمام الفنجان الذي أعده باستمتاع. كان يراقب الحبيبات وهي تتراقص في الكنكة استعدادًا للفوران، ويحس كأنما يتقلب في ارتعاشات أمواجها البُنية، مستنشقًا بفرحة طفولية رائحة البن المتصاعدة بوقار وثقة. كل رشفة من القهوة حملت متعتها الخاصة.

فتح الدولاب. لم يبحث عن جاكيت كما اعتاد أن يفعل. ظل يقلب الملابس المعلقة. شد قميصًا أبيض بنصف كُم، لم يلبسه من أعوام، وبنطالًا من الجينز الأزرق. اكتمل الرداء بحذائه الرياضي الوحيد ذي اللون الأبيض الصافي الذي لم يكدره شيء لقلة استخدامه.

حين خطا إلى مبنى المجلة مفرود الهامة، لم يلحظه أفراد الأمن الذين يجلسون خلف مكتب طويل مواجه للباب:

- على مهلك يا أخ!

وقف والتفت ناحية الصوت.

- معقول! الأستاذ... آسف جدًّا يا أفندم... حمدًا لله على السلامة.

هز رأسه وهو يستدير مكملًا طريقه.

في المصعد أيضًا لم يتعرف عليه اثنان من شباب الصحفيين:

- لا أظنه سينجو هذه المرة.

- ينجو أو يذهب في ستين داهية لا فرق... فسعادة النائب قد أحكم قبضته على المجلة، والجميع يعاملونه على أنه «الجنرال الجديد» حتى قبل صدور القرار.

وصل المصعد إلى الدور السابع حيث مكتبه. خرج مسرعًا، وقد احتفظت شفتاه بالابتسامة التي

علتهما منذ أفاق هذا الصباح. توجه نحو غرفته. مر كشبح لا يراه أحد ممن اعتادوا الوقوف كالملسوعين حين يمر. لثوانٍ توقف عند لافتة رئيس التحرير، ثم دفع الباب غير آبه لنداءات السكرتيرة التي لم تتعرف عليه.

كان نائبه يجلس في نهاية الغرفة، خلف مكتب رئيس التحرير، وعلى الكرسي نفسه، مشغولًا بمراجعة بعض مواد العدد الجديد. التفت ناحية السكرتيرة التي لحقت به. حين رأت وجهه بوضوح، اتسعت مقلتاها دون أن تنطق، وعادت إلى مكتبها بوجه مصفر. رفع النائب عينيه بهدوء مفتعل. تمددت ابتسامته المتوترة وهو يقف بتثاقل دون أن يغادر مكانه:

- يا ألف أهلًا وسهلًا... معقول، الأستاذ تعافى وشرفنا بالزيارة!

ظلت الابتسامة التي افتتحت يومه صامدة على وجهه. جلس بهدوء شديد على الكرسي المقابل للمكتب:

- منذ زمن طويل لم أعرف الجلوس على مقعد الضيف، كنت دومًا هنا.

مشيرًا إلى مقعد رئيس التحرير.

- إن كنت تود توديعه فمرحبًا بك.

قالها النائب دون أن يتحرك، ثم مد يده إلى الجرس على مكتبه. بعد لحظات دخل خليفة الساعي ممسكًا بالصينية الفارغة نفسها التي لا تفارق يده. سبقت خليفة نظرته الخاملة التي طالما لفتت انتباهه:

- أفندم!

- شوف الأستاذ أولًا فهو ضيفنا.

التف خليفة تجاهه:

- أفندم!

- ألا تعرفني يا خليفة؟

ضاقت عينا الرجل قليلًا:

- لا والله، العتب على النظر. أوامرك: شاي أم قهوة؟

ارتفعت ضحكته:

- لا شيء... لا شيء... لا شيء على الإطلاق.

- تود أن تبدأ أنت أم...

قاطعه:

- لا أنت ولا أنا... الدورة اكتملت يا عزيزي... أم تُفضل أن أناديك بالجحش؟ من المؤكد أنك قرأت ما يخصك في المذكرات؛ فقد مر وقت كافٍ، وأنا أعرف فضولك جيدًا.

اغتصب النائب وهو يجلس ابتسامة حاول أن يجعلها واسعة، وقد كسا عينيه غضب أسود:

- طول عمرك لمَّاح وذكي... حتى وأنت جحش مثلي، قبل أن تصبح الآن حصانًا عجوزًا يمكن أن تقضي عليه طلقة طائشة في أية لحظة. شروط اللعبة وأنت تعرفها جيدًا.

- نعم نعم... لا داعي للتهديد، ودعنا ننتهي من هذا الموقف سريعًا.

لم تستطع الابتسامة التي صحبته طوال يومه المقاومة أكثر من ذلك. سحب نفَسًا طويلًا، ثم وجه عينيه مباشرة لعينَي رئيس التحرير الجديد:

- أريد أوراقي... نسخة منها على الأقل... هل ستعلنها حربًا أم ستكتفي بانسحابي؟

- لو أردتها حربًا لَما انتظرت تشريف سعادتك لمكتبي.

- دعني إذن أنصحك بشيء.

- لا أريد منك نصحًا، أنت أحوج الناس...

- بل سأنصحك وستستمع بصمت، ليس لأني آمل فيك خيرًا، ولكن لأنني لا أطيق السكوت على ما أعرف وتجهل.

تململ الريس الجديد رافعًا وجهه إلى السقف.

- لا تقلق لن أخطب، هي فكرة واحدة ليتك تستوعبها جيدًا: استمتع وارتفع إلى أقصى ما تستطيع، لكن لا تهمل ضميرك أكثر من اللازم؛ فالثمن فادح، وربما تعجز عن دفعه.

امتزجت نظرة الغضب في عين النائب بشعاع غباء يعرفه جيدًا. استعاد ابتسامته وهو ينهض متمتمًا:

- جحش.

أعطى ظهره وقد رفع صوته بصورة مفاجئة:

- ابعث لي بأشيائي على البيت؛ فأنت تعرفه الآن، ولا تحاول التلاعب بما تملك، فما لديَّ عنك أخطر بكثير.

ابتسم بأسى وهو يختم مناورته الأخيرة.

خرج من المجلة خفيًّا كما دخل. قرر المشي حتى البيت. شمس يناير الحنون في ميدان التحرير تغمر المكان بدفء هادئ، في حين تطايرت مع الهواء لسعات برد منعشة. اتجه دونما تفكير إلى مقهى وادي النيل. جلس خارجه على الرصيف مقلبًا عينيه في الميدان والناس والسيارات والمباني والسماء. بعد أن شرب شايًا بنعناع، أكمل طريقه للبيت خفيفًا. هبت روائح الفلافل شهية من أحد المطاعم في شارع طلعت حرب، فانحرف تجاهه بلا تردد. منذ أيام الجامعة لم يأكل وهو سائر في الشارع. جسده المفرود وخطواته الواسعة أشعرته أنه راقص باليه يؤدي الرقصة الختامية. لم يدرِ كيف سقط ثقل السنوات من فوق أكتافه، ولا كيف غمره سلام وتسامح لم يعرف لهما من قبل طعمًا. مع أول قضمة من سندويتش الفلافل، استعاد صورة أمه ناعمة شجية، ثم توالت الصور:

عارف عبد الجواد الذي أصبح يلتقيه كل أسبوع في البار، شمايل، المليجي، فادية، وغيرهم. كانت الصور واضحة بلمعان، كأنما خرجت للتو من معمل لتنقية الألوان والملامح. لأول مرة منذ خرج من قريته يشعر بمتعة الدموع الساخنة المتدفقة على وجهه، سعادة جارفة نقية تزغرد في صدره.

بعد أن عبر شارع صبري أبو علم في اتجاه منزله، جمد مكانه. دقق النظر وهو لا يكاد يصدق، كان مراد واقفًا أمام باب البيت فاتحًا ذراعيه.

تمت